

سلسلة المعارف الإسلامية



٥١

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام

تأليف

الأستاذ علي موسى الكعبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المركز

الحمد لله ربّ العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على نبيّه الأمين محمّد المصطفى وعلى أهل بيته الطيّبين الطاهرين.

إنّ حفظ معالم الدين وصيانة أغراضه وحفظ مقاصده وتحقيق أهدافه إنّما هو في واقعہ لخدمة الإنسان والارتقاء به إلى درجات الكمال. وبهذا يبني المجتمع الإسلامي الأمثل.

ومن غير شكّ إنّ هذا لا ينافي للقراءات المتعدّدة ولو توفّر أصحابها على بعض الكفاءات العلمية والقدرات العقلية في تحليل مفاهيم الشريعة ، ولا للاجتهادات القائمة على أسس استنباطية لم تحظْ بامضاء الشريعة وتأييدها ، ولو كان أهلها على قدر عالٍ من النظر والاستنباط ، إذ لا يُؤمّن عليها من ضغط العوامل الذاتية والخارجية — سياسية كانت أو اجتماعية — من أن توجّه عملية الاستنباط باتجاه يتعد عن روح الشريعة ومضمونها ، ويتقاطع مع أهداف الدين وجوهره سواء كان ذلك على صعيد أحكامه أو مفاهيمه أو معارفه.

وليست الشريعة الإسلامية — كشرعية ذات أحكام ومفاهيم ومعارف — بمصونة في ذاتها من التعرض لتحريف المبطلين ولاجتهادات الخاطئين ، تلك الظاهرة التي لازمت الفكر البشري على الدوام ووقعت في الأديان السابقة.

ومن هنا تتجلى الأهمية الخاصّة ، والضرورة الأكيدة لوجود أئمّة المسلمين الذين جعلهم الرسول ﷺ عدلاً للكتاب العزيز وقرّهم به ، وأمر الناس باتباع أقوالهم والتمسك بهم وركوب سفينتهم مع تصريحه ﷺ بأنّهم إنّما عشر كنقباء بني إسرائيل ، وإنّ الأرض لا تخلو منهم طرفة عين ، وأنّ كلّ من مات ولم يعرف إمام زمانه منهم مات ميتة جاهلية.

وهل هم إلّا أهل بيته الذين اصطفاهم الله وطهرهم بمحكم كتابه ؟

إنّ معرفة الأئمّة عليهم السلام لا شكّ تقودنا إلى العلم بسخافة الآراء والاستنباطات الظنيّة والاجتهادات المعاصرة لهم والتي زخر بها التراث الإسلامي ، ولا زال الكثير

الكثير منها متبعاً إلى اليوم ، ذلك لأن مهمة إصلاح المجتمع كانت واحدة من أهم مهمات الأئمة الطاهرين من أهل بيت النبوة الذين أوتوا علماً وفهماً واستيعاباً للشريعة ، بأصولها وفروعها .. وعلى الرغم من الظروف القاسية التي عاشها كل واحد منهم عليهم السلام ، حيث الضغط السياسي المطبق ، والسعي السلطوي الخبيث لفرض طوق من الحصار الاجتماعي والثقافي من حولهم ، إلّا أنّهم أولوا هذه المهمة ما تستحقّه من العناية على الدوام ، وكانت مهمة صعبة ، عديدة المدخل ، حيث تزايد عدد المشتغلين بعلوم الشريعة ، وتعددت مدارسهم واتجاهاتهم ، ونشطت — إلى جانب ذلك — حركة التديون في شتى العلوم والمعارف ، وتبلور العديد من المذاهب الكلامية ، وربما سبقتها ظهوراً ، فتميّزت مذاهب : الارجاء ، والجبر ، والاعتزال ، والتفويض ، وظهرت مذاهب فقهية منسوبة إلى أصحابها من الفقهاء ، لاسيّما في المدينة والعراق ومصر كما انتفتت في ذلك العهد المبكر نسيباً جملة من الحركات الغالية التي نسبت إليهم عليهم السلام صفات من صفات الإله جلّ وعلا ، إضافة إلى فرق أخرى انشقت عن مدرسة أهل البيت نفسها ؛ كالفطحية ، والإسماعيلية ، والواقفة ، وغيرها .

فالفضاء الفكري الذي ساد في عصور الأئمة عليهم السلام مزدحم إذن بأنماط مختلفة من الرؤوس والأفكار والاجتهادات.. وفي جميع هذه الميادين لا بد أن تكون لأئمة أهل البيت عليهم السلام كلمتهم ، وإرشادهم ، وإضاءتهم ، وتقويمهم وتقييمهم ، إتماماً لهدف الإمامة وغايتها ، ولمهمة الهداية وأبعادها .

وهذه الدراسة الوجيزة تسلط الضوء على بعض جوانب ومصاديق هذا الجهد الكبير ، الذي تتطلب الإحاطة به سيرا واستقصاءً تفصيليين لتاريخ علوم الشريعة وما يتصل بها ، منذ البداية الأولى ، مع تغطية سائر مراحل النمو والتطور .. راجين أن يكون هذا الإسهام الذي يقدمه مركزنا للقارئ خطوة على الطريق . والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

مركز الرسالة

المُقدِّمةُ

الحمد لله ربّ العالمين ، وسلامه على عباده المصطفين محمد وآله الهداة الميامين .

إنّ أهل البيت عليهم السلام هم معدن النبوة ، وأعلام الهدى ، وأهل البلاغة والفصاحة ، وحدثهم هو قبسٌ من نور الكلام الإلهيِّ ، وإضاءةٌ من هدي المنطق النبويِّ ، وشعلةٌ وضّاءةٌ في سبيل هداية الأمة ، تتعدّد مسارات إشعاعها لتشمل مختلف نواحي الروح والفكر والعقيدة ، وتغطّي جوانب الحياة كافة .

ولقد بذل أئمة أهل البيت عليهم السلام جهوداً حثيثة في سبيل تصحيح مسارات مختلف جوانب الانحراف والتحريف الطارئة في حياة الأمة ، وإصلاح ما فسد من أمور المسلمين بعد رحيل جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، فوقفوا بوجه التيارات المنحرفة والمقولات الباطلة والبدع والضلالات التي استفحلت في عصر الأمويين والعباسيين ،

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٨

وسعوا جاهدين لوضعها في نصاها الصحيح ، ودافعوا عن معالم الدين الحنيف ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، إلى قيام يوم الدين.

ويتمثل المسار الانحرافي بالتيارات الفكرية المناهضة للعقيدة الإسلامية ، كالعلو والإلحاد والزندقة ، أما المسار التحريفي فيتمثل بجملة تيارات فكرية تحسب نفسها على الإسلام كالمجسمة والمشبهة والمجيرة والمفوضة والمرجئة وغيرهم ممن يحرفون الكلم عن مواضعه عن عمد أو غير عمد.

وكان من تداعيات انتشار أمثال هذه الفرق والتيارات الفكرية أن تعرض جانب كبير من قيم وتعاليم الإسلام الأخلاقية والسياسية والفكرية والروحية لهزة عنيفة أطاحت بالكثيرين ، ووجدت قيم الجاهلية لها مرتعاً خصباً في ظل السلطات المنحرفة منذ رحيل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وامتدت تأثيراتها في مساحات واسعة من جسم الأمة.

وفي ظل هكذا واقع وجد أهل البيت عليهم السلام أنفسهم أمام مسؤولية رسالية وتاريخية عظيمة ، بما يمتلكون من عمق علمي وأفضلية ومحبة في الوسط الإسلامي ، تؤهلهم لحفظ القرآن العظيم والشريعة المطهرة وتنقية المعارف الإسلامية من تلك الشوائب ، وصيانة الفكر الإسلامي من الشبهات التي علقت به ، وإحداث نقلة نوعية على صعيد الفكر والروح.

فإذا انتزعت من العترة المعصومة المرجعية السياسية في ممارسة السلطة ، فإن مرجعيتهم الفكرية الربانية قد تجاوزت أطر الحظر

والحصار ، فبسّطت بظلالها على مفاصل اجتماعية واسعة ، وقد تطرّق أحياناً أبواب السلطان ، أو تنفذ في قلب البلاط ، وذلك عن طريق تربية النُخبة الصالحة الرشيدة ، التي تبنّت حمل راية الهداية ، فكانت أساساً لمدرسة فكرية تتحمّل عبء نشر مبادئ الإسلام الأصيل ، وبقيت لتعاليمها الإسلامية الراقية مدلولها الحيّ العملي على طول الزمان ما دام هناك مسلم بحاجة إلى فهم الإسلام والتعرّف على شريعته وأحكامه ومفاهيمه وقيمه.

وتجدر الإشارة إلى أن أساليب التصحيح والإصلاح التي مارسها الأئمة من أهل البيت تختلف بحسب الظروف والتحديات المحيطة بهم ﷺ ، كالعوامل السياسية المتغيرة ودرجة وعي الأمة ، فقد يكون الإصلاح مرةً بالإشارة الصريحة إلى الانحراف ، وأخرى بالإشارة الضمنية ، أو بالاكْتفاء ببيان طريقة التصحيح والإصلاح والتأكيد عليها ، لترسيخها في ذهن الأمة وضميرها.

وعلى رغم التفاوت بينهم ﷺ في اختيار الأسلوب المناسب ، فإنّ المنهج المتبع في الإصلاح والتصحيح واحدٌ لا اختلاف فيه ، لأنّه مستمدّ من معين معصوم واحد ، وقد اتّسم بالشمولية بحيث يستوعب مختلف الجوانب الفكرية والعقدية ، وينطلق من تشخيص دقيق للظروف الموضوعية التي تمرّ بها الحالة الإسلامية على كل المستويات.

ومع اعترافنا بتشعب هذا الموضوع ، وتعدّد جوانب البحث فيه ، فإنّنا

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠

سنحاول التوفّر على دراسة بعض معالم التصحيح ومحطّاته الرئيسية ضمن فصول سبعة ، ونسوق بعض الأمثلة المناسبة ، لتكون بمثابة إثارات لمن يريد التعمّق في دراسة مواطن الانحراف وأسبابه ، ومعالم التصحيح وآثاره في حياة الأمة إلى يومنا هذا ، ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق ، وهو من وراء القصد.

الفصل الأول

معالم التصحيح في التفسير والحديث

المبحث الأول

في تفسير القرآن الكريم وتوضيح مفاهيمه

يعدّ حديث أهل البيت عليهم السلام من أهم مصادر تفسير آيات الكتاب الكريم ، وبيان أبعاد معانيه ، وتصاريف أغراضه ومرامييه ، وقد أثبتت الدلائل والوقائع أنهم عليهم السلام الأقدر على تفسير الكتاب وإدراك مضامينه وفهم دقائقه ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ ﴾ (١).

ذلك لأن القرآن نزل في بيوتهم ، ولأنهم أعدل القرآن الذين قرن رسول الله صلى الله عليه وآله بينهم وبينه ، وذكر أنهما لن يفترقا حتّى يردا عليه الحوض ، وورد عنهم عليهم السلام ما يدل على إحاطتهم بتفسير كتاب الله ومعرفة أسباب نزوله وناسخه ومنسوخه وسائر علومه ، وإنما تعلموا ذلك من جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « والله ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيما نزلت ،

(١) سورة النساء : ٤ / ٨٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٢
وأين نزلت ، وعلى من نزلت ، إنَّ ربِّي وهب لي قلباً عقولاً ، ولساناً طلقاً
سؤولاً» (١).

وقال عليه السلام : « ما نزلت عليه آية في ليل ولا نهار ، ولا سماء ولا أرض ، ولا
دنيا ولا آخرة ، ولا جنة ولا نار ، ولا سهل ولا جبل ، ولا ضياء ولا ظلمة ، إلَّا
أقرأنيها وأملأها عليّ ، فكتبتُها بيدي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها
ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، وخاصَّها وعمَّها ، وأين نزلت ، وفيم نزلت
إلى يوم القيامة » (٢).

وقال الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل
الراسخين في العلم ، فقد علم جميع ما أنزل الله عليه من الترتيل والتأويل ،
وما كان الله ليترل عليه شيئاً لم يعلمه إياه ، وأوصياؤه من بعده يعلمونه
كله » (٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام : « إنا أهل بيت لم يزل الله يبعث منّا من يعلم كتابه
من أوله إلى آخره » (٤).

ومن تتبع التفسير الأثري الوارد عن أهل البيت عليهم السلام يجد أن لهم
منهجاً في التفسير يختلف تماماً عن مناهج المفسرين ، ويتجلّى ذلك بكل
وضوح بتفسيرهم للآيات الموهمة لتجسيم الخالق والمنافية لعصمة

(١) كتر العمال ١٣ : ١٢٨ / ٣٦٤٠٤.

(٢) تحف العقول : ١٩٦.

(٣) تفسير القمي ١ : ٩٦ ، تفسير العياشي ١ : ١٦٤ / ٦.

(٤) مختصر بصائر الدرجات : ٥٩.

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ١٣

الأنبياء ، ففسّروا تلك الآيات ببتزيه الخالق عن التجسيم والوصف والرؤية ، وتزيه الأنبياء عن المعاصي ، ونبذ كلّ ما عدا ذلك مما يسيء إلى عقيدة التوحيد والنبوة والمعاد ، ولا يليق بساحة الكتاب وجلال معانيه ، كالعقائد المنحرفة والآراء المضلّلة التي كانت تفرض نفسها على الواقع الإسلامي بين حين وآخر ، مثل التشبيه والتجسيم والتعطيل والجرير والتفويض وغيرها. وقد أكّدوا في جميع الموارد على ضرورة الرجوع إلى الرسول ﷺ في فهم كلام الله عزّ وجلّ ، سواء في المسائل الاعتقادية أو العملية أو غيرها ولذلك جهدوا في الوقوف بوجه التفسير الذي يستند إلى الرأي الخالي من العلم والحجة القاطعة والبرهان الساطع ، أو التفسير الذي يؤخذ من الرجال.

عن زيد الشحام قال : « دخل قتادة على أبي جعفر عليه السلام ، فقال : يا قتادة ، أنت فقيه أهل البصرة ؟ قال : هكذا يزعمون. فقال أبو جعفر عليه السلام : بلغني أنك تفسر القرآن ؟ فقال له قتادة : نعم. فقال له أبو جعفر عليه السلام : بعلم تفسره أم بجهل ؟ قال : لا ، بعلم. فقال له أبو جعفر عليه السلام : فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت... ويحك يا قتادة ، إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك ، وإن كنت قد أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت... ويحك يا قتادة ، إنما يعرف القرآن من حوطب به » (١).

وعن أبي بصير ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « من فسّر القرآن برأيه ، إن

(١) الكافي ٨ : ٣١١ / ٤٨٤.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٤
أصاب لم يُوجر ، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء» ^(١).

وفيما يلي إشارة سريعة إلى بعض معالم التصحيح الواردة عنهم عليهم السلام ضمن هذا الإطار.

١ - في تفسير القرآن الكريم :

على أساس اتجاهات الوعي المتقدمة فسّر أهل البيت عليهم السلام آيات الكتاب الكريم ، فتركوا تراثاً تفسيرياً ضخماً يشتمل على آلاف الروايات والأخبار التي تدخل في باب التفسير ، جمعها السيد هاشم البحراني المتوفى سنة (١١٠٧ هـ) في كتابه (البرهان في تفسير القرآن) ، والشيخ عبد علي بن جمعة العروسي المتوفى سنة (١١١٢ هـ) في تفسيره (نور الثقلين) ، فضلاً عن تفاسير الأثر المتقدمة الواصلة إلينا مثل تفسير فرات الكوفي ، والعياشي ، وعلي بن إبراهيم القمي ، وجميعها تقتصر على حديثهم الوارد في هذا الشأن. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - عن أبي الأسود الدؤلي ، قال : « رُفِعَ إلى عمر امرأة ولدت لستّة أشهر ، فسأل عنها أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، فقال عليّ عليه السلام : لا رجم عليها ، ألا ترى أنّه تعالى يقول : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ ^(٣) ، وكان الحمل هاهنا ستة أشهر. فتركها عمر ، قال : ثمّ بلغنا أنّها

(١) تفسير العياشي ١ : ٩٦ / ٦٧ ، بحار الأنوار ٩٢ : ١١٠ / ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف : ٤٦ / ١٥ .

(٣) سورة لقمان : ٣١ / ١٤ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ١٥
ولدت آخر لسته أشهر» (١).

٢ - وروي أنّ رجلاً دخل مسجد الرسول ﷺ ، فإذا رجل يُحدّث عن رسول الله ﷺ ، قال : « فسألته عن الشاهد والمشهد ، فقال : نعم ، أمّا الشاهد يوم الجمعة ، والمشهد يوم عرفة. فجزّته إلى آخر يُحدّث عن رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك. فقال : أمّا الشاهد فيوم الجمعة ، وأمّا المشهد فيوم النحر. فجزّتهما إلى غلام كأن وجهه الدينار ، وهو يُحدّث عن رسول الله ﷺ ، فقلت : أخبرني عن شاهدٍ ومشهودٍ. فقال : نعم ، أمّا الشاهد فمحمّد ﷺ ، وأمّا المشهد فيوم القيامة ، أمّا سمعت الله سبحانه يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢) ؟ وقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (٣).

فسألته عن الأوّل ، فقالوا : ابن عباس ، وسألته عن الثاني فقالوا : ابن عمر ، وسألته عن الثالث فقالوا : الحسن بن عليّ رضي الله عنهما (٤).

٣ - وروي عن زرارة ومحمّد بن مسلم : أنّهما قالوا : « قلنا لأبي جعفر عليه السلام : ما تقول في الصلّاة في السفر كيف هي ، وكم هي ؟ فقال : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ (٥) ، فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب التمام في

(١) الدرّ المنثور ٧ : ٤٤١.

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٤٥.

(٣) سورة هود : ١١ / ١٠٣.

(٤) جمع البيان ١٠ : ٧٠٨.

(٥) سورة النساء : ٤ / ١٠١.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٦
الحضر.

قالا : قلنا : إنما قال الله عزّوجلّ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ ولم يقل :
افعلوا ، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر ؟
فقال : أو ليس قد قال الله عزّوجلّ في الصّفا والمروة : ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ
اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ^(١) ؟ ألا ترون أنّ الطواف بما واجب
مفروض ؟ لأنّ الله عزّوجلّ ذكره في كتابه وصنعه نيّيه ، وكذلك التقصير في
السفر شيء صنعه النبي صلّى الله عليه وآله وذكره الله تعالى في كتابه ^(٢) .
إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة الأخرى والتي يمكن الوقوف عليها
بمراجعة ما ذكرناه من كتب التفسير الروائي.

٢ — التصدي للمزاعم الباطلة حول القرآن الكريم :

تصدّى أهل البيت عليهم السلام لكثير من المقولات الباطلة حول كتاب الله ،
منها ما قيل بأنّه على سبعة أحرف ، وأنّ المعوذتين ليستا منه ، والبسمة
ليست من الفاتحة ، وغير ذلك .
عن الفضيل بن يسار قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إن الناس يقولون :
إن القرآن نزل على سبعة أحرف ؟ فقال : كذبوا أعداء الله ، ولكنه نزل على
حرف واحد من عند الواحد » ^(٣) .
وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه سئل عن المعوذتين ، أهما من

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٥٨ .

(٢) نور الثقلين ١ : ٥٤١ / ٥٢٧ ، من لا يحضره الفقيه ١ : ٢٧٨ / ١٢٦٦ .

(٣) الكافي ٢ : ٦٣٠ / ١٣ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ١٧
القرآن ؟ فقال عليه السلام : « نعم هما من القرآن. فقال الرجل : إلهما ليستا من القرآن
في قراءة ابن مسعود ، ولا في مصحفه. فقال أبو عبد الله عليه السلام : أخطأ ابن مسعود ،
هما من القرآن. قال الرجل : فأقرأ بهما يا بن رسول الله في المكتوبة ؟ قال :
نعم ، وهل ترى ما معنى المعوذتين ، وفي أي شيء نزلتا ؟ .. » ^(١).

وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام : يا أمير المؤمنين ، أخبرنا عن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أهي من فاتحة الكتاب ؟ فقال : « نعم ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله
يقرأها ويعدّها منها ، ويقول : فاتحة الكتاب هي السبع المثاني » ^(٢).

وشدد أهل البيت عليهم السلام على ضرورة توحيد القراءة حفظاً للكتاب
الكريم من الاختلاف ، عن سفيان بن السمط ، قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام
عن تنزيل القرآن ، فقال : اقرءوا كما علمتم .. » ^(٣).

وعن سالم بن سلمة ، قال : « قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام حروفاً
من القرآن ليس على ما يقرأ الناس ، فقال عليه السلام : كفّ عن هذه القراءة ، اقرأ
كما يقرأ الناس » ^(٤).

٣ — تصحيح مزاعم المفسرين :

ثمة مفاهيم تشغل مساحة واسعة من التفسير ، وتتعلق بموضوعات
مختلفة ، ويأتي على رأسها مسائل الاعتقاد ، وهي في حقيقتها طائفة

(١) بحار الأنوار ٦٣ : ٢٤ / ١٨ .

(٢) عيون أخبار الرضا ١ : ٣٠٠ / ٥٩ ، أمالي الصدوق : ٢٤٠ / ٢٥٤ .

(٣) الكافي ٢ : ٦٣١ / ١٥ .

(٤) الكافي ٢ : ٦٣٣ / ٢٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٨
على ساحة التفسير وقدرسه ، ولا تمثل التفسير الذي يريده الله
ورسوله صلى الله عليه وآله ، ومن يدقق في أسبابها يجدها تتعلق بالهوى والرأي والزعم
الذي لا يغني عن الحق شيئاً ، أو بسبب الاعتماد على أسباب التزول
والأخبار غير الموثقة ، أو الإسرائيليات في بعض جوانبها ، وقد استطاع
آل البيت عليهم السلام أن يسيروا إليها ويضعوها على سكة التفسير الصحيح ، ومن
الأمثلة على ذلك :

١ - عن محمد بن عطية ، قال : « جاء رجل إلى أبي جعفر عليه السلام من أهل
الشام من علمائهم ، فقال له : يا أبا جعفر ، قول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ
كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ ^(١) ؟ فقال له أبو جعفر عليه السلام :
فلعلك تزعم أنهما كانتا رتقاً ملتزقتين ملتصقتين ففتقت إحداهما من
الأخرى ؟ فقال : نعم ، فقال أبو جعفر عليه السلام : استغفر ربك ، فإن قول الله عز وجل :
﴿ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ يقول : كانت السماء رتقاً لا تُتزل المطر ، وكانت الأرض رتقاً لا
تُنبت الحب ، فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق وبث فيها من كل دابة ، فتق
السماء بالمطر ، والأرض بنبات الحب ، فقال الشامي : أشهد أنك من ولد
الأنبياء ، وأن علمك علمهم » ^(٢).

٢ - وروى علي بن إبراهيم بالإسناد عن حماد ، عن الصادق عليه السلام ،
قال : « ما يقول الناس في هذه الآية ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ ؟ قلت :

(١) سورة الأنبياء : ٢١ / ٣٠.

(٢) الكافي ٨ : ٩٥ / ٦٧.

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ١٩
يقولون إنّها في القيامة. قال عائشة : ليس كما يقولون ، إنّ ذلك في الرجعة ،
أحسّر الله في القيامة من كلّ أمة فوجاً ويدع الباقين ؟ إنّما آية القيامة قوله :
﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ^(١).

٤ — مسألة خلق القرآن :

ابتدعت هذه المقولة إبان الحكم العباسي ، وبالتحديد في زمان
المأمون ، الذي فرضها بالقوة ، وامتنحن القضاة والمحدثين بها ، وقيل : إنّ
أثارها بسبب تنبيه مذهب الاعتزال ، وقيل : للقضاء على خصومه ، حيث
قتل خلقاً كثيراً من جرائها ، وفنك بوحشية وقسوة بكل من عارضها أو
أبدى حياداً حولها ، وانتشرت بسببها المزيد من الأحقاد والأضغان بين
المسلمين.

وكان جواب الأئمة للإمام المعاصرين لتلك الحنة واضحاً ، يقوم على
اعتبار الجدال في القرآن بدعة ، مع التفريق بين كلام الله تعالى وبين علمه ،
فكلامه تعالى محدث وليس بقديم ، قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ
مُحَدَّثٍ ﴾ ^(٢) ، وأما علمه فقديم قدم ذاته المقدسة ، وهو من الصفات التي
هي عين ذاته.

روى الشيخ الصدوق بالإسناد عن محمد بن عيسى بن عبيد
اليقطيني ، قال : « كتب علي بن محمد بن علي بن موسى الرضا إلى بعض

(١) تفسير القمي ١ : ٢٤ ، مختصر بصائر الدرجات / الحسن بن سليمان : ٤١ ،

والآية من سورة الكهف : ١٨ / ٤٧ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢١ / ٢ .

شيئته ببغداد : بسم الله الرحمن الرحيم ، عصمنا الله وإياك من الفتنة ، فإن يفعل فأعظم بها نعمة ، وإن لا يفعل فهي الهلكة ، نحن نرى أن الجدل في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب ، فيتعاطى السائل ما ليس له ، ويتكلف المجيب ما ليس عليه ، وليس الخالق إلا الله عز وجل ، وما سواه مخلوق ، والقرآن كلام الله ، لا تجعل له اسماً من عندك فتكون من الضالين ، جعلنا الله وإياك من الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون »^(١).

ونرى بعض امتدادات هذه المسألة إلى زمان الإمام العسكري عليه السلام ، فقد روي عن أبي هاشم الجعفري أنه قال : « فكّرت في نفسي ، فقلت : أشتهي أن أعلم ما يقول أبو محمد عليه السلام في القرآن ؟ فبدأني وقال : الله خالق كل شيء ، وما سواه فهو مخلوق »^(٢).

٥ — منهجهم في تفسير آيات الصفات :

ذكرنا أن لأهل البيت عليهم السلام منهجاً واضحاً في تفسير القرآن ، يرتكز على جملة أسس ، منها تجريد الذات الإلهية عن كل صفات الممكن ، ذلك لأن البعض جمّد على ظواهر الكتاب والسنة ، فوجه إساءة إلى التوحيد الذي يعتبر حجر الزاوية في عقيدتنا الإسلامية ، فتصور أن لله عرشاً يجلس عليه ، وبالإمكان النظر إليه ، وأن له حوارح كحوارح الإنسان ، وما إلى ذلك من مزاعم لا تستقيم مع العقل السليم ، من هنا عمل آل البيت عليهم السلام

(١) التوحيد / الصدوق : ٢٢٤ / ٤ .

(٢) الثاقب في المناقب : ٥٦٨ / ٥١١ ، الخرائج والجرائح : ٢ / ٦٨٦ / ٦ .

على تأويل الآيات التي يدل ظاهرها على التشبيه والتجسيم.

سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ ^(١) فقال عليه السلام : « إن الله لا يوصف بالمجيء والذهاب والانتقال ، إنما يعني بذلك وجاء أمر ربك » ^(٢).

وسئل عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ^(٣) ، فقال عليه السلام : « إن الله تعالى لا يوصف بمكان يحلّ فيه فيحجب عن عباده ، ولكنه يعني عن ثواب ربهم محجوبين » ^(٤).

وعن محمد بن مسلم ، قال : « سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت : قوله عزّ وجلّ : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾ ^(٥) . فقال عليه السلام : اليد في كلام العرب القوّة والنعمة ، قال الله : ﴿ وَأذْكَرُ عَبْدًا ذَا الْأَيْدِ ﴾ ^(٦) ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ ^(٧) ، أي بقوّة ، وقال : ﴿ وَأَيْدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ ^(٨) أي قوّاهم ، ويقال : لفلان عندي أياد كثيرة. أي فواضل وإحسان ، وله عندي يد

(١) سورة الفجر : ٨٩ / ٢٢ .

(٢) الاحتجاج ٢ : ١٩٣ .

(٣) سورة المطففين : ٨٣ / ١٥ .

(٤) الاحتجاج ٢ : ١٩٣ .

(٥) سورة ص : ٣٨ / ٧٥ .

(٦) سورة ص : ٣٨ / ١٧ .

(٧) سورة الذاريات : ٥١ / ٤٧ .

(٨) سورة المجادلة : ٥٨ / ٢٢ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٢٢
بيضاء. أي نعمة» ^(١).

وقال الرضا عليه السلام : في قول الله عز وجل : ﴿ وَجُودًا يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ ^(٢) ، قال : « يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها » ^(٣).

وفي هذا السياق نفى أهل البيت عليهم السلام في تفاسيرهم مقولات المشبهة الذين حاولوا الاستفادة من ظواهر بعض الآي وتطويعها لخدمة مقولاتهم الباطلة وأغراضهم السيئة ، وعمدوا إلى توجيه الناس إلى عدم الخوض في صفات الخالق جلّ وعلا بما لا يملكون كنهه وعمقه ، وأن يصفوه بما وصف به نفسه ، فانه أعرف بنفسه من مخلوقاته كلها.

عن المشرقي ، عن بعض أصحابنا ، قال : « كنت في مجلس أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه عمرو بن عبيد فقال له : جعلت فداك ، قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ ^(٤) ما ذلك الغضب ؟ فقال أبو جعفر عليه السلام : هو العقاب ، يا عمرو إنه من زعم أن الله قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق ، وإن الله تعالى لا يستفزه شيء فيغيره » ^(٥).

سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا

(١) التوحيد : ١٥٣ / ١ .

(٢) سورة القيامة : ٧٥ / ٢٢ - ٢٣ .

(٣) التوحيد : ١١٦ / ١٩ ، الاحتجاج ٢ : ١٩١ .

(٤) سورة طه : ٢٠ / ٨١ .

(٥) الكافي ١ : ١١٠ / ٥ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٢٣
وَجْهَهُ ﴿١﴾ فقال : « ما يقولون فيه ؟ قلت : يقولون : يهلك كل شيء إلّا وجه
الله. فقال : سبحان الله ! لقد قالوا قولاً عظيماً ، إنّما عني بذلك وجه الله الذي
يؤتى منه » (٢).

وعن وهب بن وهب القرشي ، عن الإمام الصادق ، عن آبائه عليهم السلام : « إنّ
أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن عليّ عليه السلام يسألونه عن ﴿ الصَّمْدُ ﴾ فكتب
إليهم : بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أمّا بعد ، فلا تخوضوا في القرآن ، ولا
تجادلوا فيه بغير علم ، فقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من قال في
القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وإنّ الله سبحانه فسّر الصمد ، فقال :
﴿ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمْدُ ﴾ ثمّ فسّره ، فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٣).

فهو عليه السلام هنا يبحث على عدم الخوض بالتفسير بغير علم ، ويعتمد
اسلوب تفسير القرآن بالقرآن لشرح كلمة الصمد.

٦ — في تفسير آيات الأحكام :

أشار أئمة أهل البيت عليهم السلام في كثير من مواضع التفسير إلى تفاصيل
بعض الأحكام وعلل بعض الشرائع ومعاني بعض الأخبار المتعلقة بالفقه ،
بحال يخالف ما درج عليه أهل الفقه في زمانهم ، محاولين وضع تلك
الآيات في موردها الشرعي الصحيح المستند إلى الكتاب والسنة ومن

(١) سورة القصص : ٢٨ / ٨٨.

(٢) الكافي ١ : ١٤٣ / ١.

(٣) التّوحيد : ٩٠ / ٥ ، والآيات من سورة الإخلاص : ١١٢ / ٣ — ٤.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٢٤
ذلك :

١ - عن أبي الربيع الشامي ، قال : « سئل أبو عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ ^(١) فقال : ما يقول الناس ؟ فقيل له : الزاد والراحلة. فقال أبو عبدالله عليه السلام : سئل أبو جعفر عليه السلام عن هذا ؟ فقال : لقد هلك الناس إذا ، لئن كان من كان له زاد وراحلة قدر ما يقوت به عياله ، ويستغني به عن الناس ، ينطلق إليهم فيسألهم إياه ، ويحجّ به ، لقد هلكوا إذا.

فقيل له : فما السبيل ؟ قال : فقال : السعة في المال ، إذا كان يحجّ ببعضه ويُبقي بعضاً يقوت به عياله ، أليس الله قد فرض الزكاة ، فلم يجعلها إلّا على من يملك مائتي درهم ^(٢) ؟

٢ - وعن الحلبي ، قال : « سأله عليه السلام عن قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ^(٣). قال : ... يعني سكر النوم ، يقول : وبكم نعاس يمنعكم أن تعلموا ما تقولون في ركوعكم وسجودكم وتكبيركم ، وليس كما يصف كثير من الناس ، يزعمون أنّ المؤمنين يسكرون من الشراب ، والمؤمن لا يشرب مُسكرًا ولا يسكر ^(٤).

٣ - وعن أبي بصير ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قلت له : رأيت قول

(١) سورة آل عمران : ٣ / ٩٧.

(٢) تفسير العياشي ١ : ٣٣١ / ٧٥٢ ، الكافي ٤ : ٢٦٧ / ٣ ، علل الشرائع : ٤٥٣ / ٣.

(٣) سورة النساء : ٤٣ / ٤.

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣٩٩ ، بحار الأنوار ٨٤ : ٢٣١ / ٤.

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٢٥

الله عزّوجلّ : ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ (١) ، فقال : إنّما لم يحل له النساء التي حرم الله عليه في هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ (٢) ولو كان الأمر كما يقولون لكان قد أحلّ لكم ما لم يحلّ له هو ، لأنّ أحدكم يستبدل كلما أراد ، ولكن ليس الأمر كما يقولون : أحاديث آل محمد ﷺ خلاف أحاديث الناس ، إنّ الله عزّوجلّ أحلّ لنبيه ﷺ أن ينكح من النساء ما أراد إلّا ما حرم عليه في سورة النساء ، في هذه الآية « (٣) .

٧ - في أسباب التزول :

لأهل البيت ﷺ كلمتهم في علم أسباب التزول ، سيما في باب الآيات النازلة فيهم ، أو المبنية لحقوقهم في الإمامة والولاية والطاعة والمودة والصلاة عليهم ، وحقهم في الأنفال والخمس والفيء ، إلى غير ذلك من الآيات التي استعرضت فضلهم السامي ومكارمهم العالية ، وقد تجنّى بعض المفسرين في هذا الباب كثيراً ، لمداراهم أهواء أصحاب السلطة والصولجان ، ومجانبتهم المنطق السليم وما تواتر من الأثر الصحيح ، مما اضطرهم إلى الخوض في تفسيرات متهافنة وبعيدة عن صريح دلالة الآيات ، وترتب على هذا العمل الخطير عواقب وخيمة بعدت آل النبي ﷺ عن موقعهم الذي أراده الله لهم ، وجعل الأمة تتطاول على حقوقهم التي ربّها الله لهم ، والآثار في هذا الباب كثيرة اخترنا منها :

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٥٢ .

(٢) سورة النساء : ٤ / ٢٣ .

(٣) الكافي ٥ : ٣٩١ / ٨ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٢٦

١ - واحتجّ أئمة أهل البيت عليهم السلام بقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ^(١) على فرض مودتهم ووجوب محبتهم على كل مؤمن ، روى إسماعيل بن عبد الخالق ، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : « سمعته عليه السلام يقول لأبي جعفر الأحول : ما يقول أهل البصرة في هذه الآية ﴿ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ؟ فقال : جعلت فداك ، انهم يقولون : إنها لأقارب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : كذبوا إنما نزلت فينا خاصة ، في أهل البيت ، في علي وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء » ^(٢).

٢ - وعن عبد الله بن عطاء ، قال : « قلت لأبي جعفر عليه السلام : هذا ابن عبد الله بن سلام بن عمران يزعم أن أباه الذي يقول الله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ ^(٣) ؟ قال : كذب ، هو علي بن أبي طالب عليه السلام » ^(٤).

٣ - وعن عمرو بن سعيد ، قال : « سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(٥) ، قال : علي بن أبي طالب والأوصياء من بعده » ^(٦).

(١) سورة الشورى : ٤٢ / ٢٣ .

(٢) الكافي ٨ : ٧٩ / ٦٦ ، قرب الإسناد / الحميري : ١٢٨ / ٤٥٠ .

(٣) سورة الرعد : ١٣ / ٤٣ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٤٠١ / ٢٢٥٦ ، بصائر الدرجات : ٢٣٥ / ١٦ .

(٥) سورة النساء : ٤ / ٥٩ .

(٦) تفسير العياشي ١ : ٢٥٣ / ١٧٦ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٢٧
حدير بالذكر إن ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في تصحيح أسباب
التزول كما مر مثاله في الروايات الآتية هو مأخوذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله
لوجود أحاديث كثيرة في هذا الباب مسندة إلى النبي صلى الله عليه وآله في خصوص
توضيح سبب نزول الآيات المذكورة.

المبحث الثاني - الحديث

في رواية الحديث ودرايته

لم يدّخر الأئمّة عليهم السلام وسعاً في سبيل إصلاح ثاني ركائز التشريع
ومنايع الفكر الديني بعد كتاب الله تعالى ، فأكدوا على ضرورة تدوينه ،
وبيّنوا منهجاً واضحاً لتصحيحه وتفصيل فقّهه وعلّله وطرق تحمّله
وسمّاعه ، وأوضحوا أنّ فيه ناسخاً ومنسوخاً وخاصاً وعماماً ومحكماً
ومتشابهاً ، ويتوجب ردّ المتشابه إلى المحكم منه .

عن محمد بن مسلم ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قلت له : ما بال أقوام
يروون عن فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وآله لا يتهمون بالكذب ، فيجيء
منكم خلافه ؟ قال : إنّ الحديث يُنسخ كما يُنسخ القرآن » ^(١).

وقال الإمام الرضا عليه السلام : « إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ،
ومحكماً كمحكم القرآن ، فردّوا متشابهها إلى محكمها ، ولا تتبعوا متشابهها

(١) الكافي ١ : ٦٤ / ٢ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٢٨
دون محكمها فتضلوا» (١).

ويوجه أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه إلى ضرورة معرفة أنواع الحديث ،
وتحرّي الدقة عن ظروف صدوره وحال رواته ، فيقسم الرواة بحسب
صدقهم إلى أربعة : منافق يتعمد الكذب ، وآخر واهم لم يتعمد الكذب ،
وثالث حفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ ، ورابع صادق أتى بالحديث
على وجهه.

عن سليم بن قيس الهلالي ، قال : « قلت لأمير المؤمنين عليه السلام : إني
سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذرّ شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن
نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في أيدي الناس ، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت
منهم ، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن
الأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله أنتم تحالفونهم فيها ، وتزعمون أن ذلك كله
باطل ، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ، ويفسّرون
القرآن بأرائهم ؟

قال : فأقبل عليّ فقال : قد سألت فافهم الجواب ؛ إنّ في أيدي الناس
حقاً وباطلاً ، وصدقاً وكذباً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وعاماً وخاصاً ، ومحكماً
ومتشابهاً ، وحفظاً ووهماً ، وقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله على عهده حتى قام
خطيباً فقال : أيها الناس ، قد كثرت عليّ الكذّابة ، فمن كذب عليّ متعمداً
فليتبوأ مقعده من النار. ثمّ كذب عليه من بعده.

(١) عيون أخبار الرضا ١ : ٢٢٦ / ٣٩.

وإنّما أتاكم الحديث من أربعة ليس لهم خامس :

رجل منافق يظهر الإيمان ، متصنّع بالإسلام ، متكلّف له ، ومتدلّس به ، غير متصفٍ به ، لا يتأثم ولا يتحرّج أن يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً ، فلو علم الناس أنّه منافق كذّاب ، لم يقبلوا منه ولم يصدّقوه ، ولكنّهم قالوا : هذا قد صحب رسول الله ﷺ ورآه وسمع منه ، وأخذوا عنه وهم لا يعرفون حاله ، وقد أخبره الله عن المنافقين بما أخبره ، ووصفهم بما وصفهم ، فقال عزّوجلّ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ ^(١) ثمّ بقوا بعده ، فتقرّبوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والكذب والبهتان ، فولّوهم الأعمال ، وحملوهم على رقاب الناس ، وأكلوا بهم الدنيا ، وإنّما الناس مع الملوك والدنيا إلّا من عصم الله ، فهذا أحد الأربعة .

ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحملّه على وجهه ووهم فيه ، ولم يتعمّد كذباً ، فهو في يده ، يقول به ويعمل به ويرويه فيقول : أنا سمعته من رسول الله ﷺ ، فلو علم المسلمون أنّه وهم لم يقبلوه ، ولو علم هو أنّه وهم لرفضه .

ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً أمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم ، أو سمعه ينهى عن شيء ثمّ أمر به وهو لا يعلم ، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناسخ ، ولو علم أنّه منسوخ لرفضه ، ولم علم المسلمون إذ سمعوه منه أنّه منسوخ لرفضوه .

(١) سورة المنافقون : ٦٣ / ٤ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٣٠

وآخر رابع لم يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، مبيغض للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم ينسه ، بل حفظ ما سمع على وجهه ، فجاء به كما سمع لم يزد فيه ولم ينقص منه ، وعلم الناسخ من المنسوخ ، فعمل بالناسخ ورفض المنسوخ. فإن أمر النبي صلى الله عليه وآله مثل القرآن ، ناسخ ومنسوخ ، وخاص وعمّ ، ومحكم ومتشابه ، قد كان يكون من رسول الله صلى الله عليه وآله الكلام له وجهان : كلام عمّ ، وكلام خاصّ ، مثل القرآن ، وقال الله عزّوجلّ في كتابه : ﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ^(١) فيشتبه على من لم يعرف ولم يدر ما عنى الله به ورسوله صلى الله عليه وآله « ^(٢) .

موارد من تصحيح الحديث :

على ضوء المنهج المتقدّم سمع أهل البيت عليهم السلام مزيداً من الأحاديث المتداولة على ألسن الرواة والمحدثين ، فأشاروا إلى أوهام المحدثين ، وأمروا أصحابهم بردّها أو تصحيحها على وفق روايتها الصحيحة ، وفيما يلي بعض موارد التصحيح ، وهي مجموعها تشكّل أحد أهم الأدوات التي تؤهّل المحدثين لفهم المراد من الحديث وبيان معناه وفقهه.

١ — بيان سبب صدور الحديث :

هناك أسباب دعت إلى صدور غالبية الأحاديث ، مثلما دعت أسباب أخرى إلى نزول آي الكتاب الكريم ، لأن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله لا يتكلم

(١) سورة الحشر : ٥٩ / ٧٠ .

(٢) الكافي ١ : ٦٢ / ١ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٣١
اعتباطاً بل حديثه موافق لمقتضى الحال ، وبدون الاحاطة بتلك الأسباب
يقيم الحديث ناقصاً ولا يتوفر المحدث أو المتلقي على معرفته ، ومن هنا
أشار أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى أسباب صدور بعض الأحاديث كي يجلوا
عنها غبار الغموض والابهام.

عن أبان الأحمر ، قال : « سأل بعض أصحابنا أبا الحسن عليه السلام عن
الطاعون يقع في بلدة وأنا فيها ، أتحوّل عنها ؟ قال : نعم. قال : ففي القرية
وأنا فيها ، أتحوّل عنها ؟ قال : نعم. قال : ففي الدار وأنا فيها ، أتحوّل عنها ؟
قال : نعم. قلت : إنا نتحدث أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : الفرار من الطاعون
كالفرار من الزحف ؟ قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله إنما قال هذا في قوم كانوا في
الثغور في نحو العدو ، فيقع الطاعون ، فيخّلون أماكنهم ويفرون منها ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فيهم » (١).

٢ — بيان مواطن الحذف والتحريف :

تعرض الحديث لأسباب مختلفة وأغراض شتى إلى الحذف
والاسقاط والتحريف ، وكان للأئمة الهداة عليهم السلام دور واضح في الدلالة على
هذه الظاهرة الخطيرة التي توجّه إلى أحد أهم مصادر التشريع.

عن الحسين بن خالد ، قال : « قلت للرضا عليه السلام : يابن رسول الله ، إنّ
قوماً يقولون : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إنّ الله خلق آدم على صورته ؟ فقال :
قاتلهم الله ، لقد حذفوا أول الحديث ، إنّ رسول الله مرّ برجلين يتسايان ، فسمع

(١) معاني الأخبار : ٢٥٤ / ١.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٣٢
أحدهما يقول لصاحبه : قَبَّحَ اللهُ وجهك ووجه من يشبهك. فقال له صلى الله عليه وآله :
يا عبدالله ، لا تقل هذا لأخيك ، فإنَّ الله عزَّوجلَّ خلق آدم على صورته «^(١) .

وعن إبراهيم بن أبي محمود ، قال : « قلت للرضا عليه السلام : يا بن رسول الله ،
ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : إنَّ الله
تبارك وتعالى ينزل كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا ؟

فقال عليه السلام : لعن الله المحرِّفين للكلم عن مواضعه ، والله ما قال رسول
الله صلى الله عليه وآله كذلك ، إنما قال صلى الله عليه وآله : إنَّ الله تعالى ينزل ملكاً إلى السماء الدنيا كلَّ ليلةٍ
في الثلث الأخير ، وليلة الجمعة في أول الليل ، فيأمره فينادي : هل من سائلٍ
فأعطيه ، هل من تائبٍ فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ؟ يا طالب الخير
أقبل ، يا طالب الشرِّ أقصر . فلا يزال ينادي بذلك حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع
الفجر عاد إلى محلِّه من ملكوت السماء ؛ حدَّثني بذلك أبي ، عن جدِّي ، عن
آبائه عليهم السلام ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله «^(٢) .

٣ — بيان مواطن الكذب والوضع :

وأشار الأئمة عليهم السلام إلى أحد أهم آفات الحديث الشريف ، وهي
الكذب والافتراء والتدليس على جدهم الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله ، وعلى
الأئمة المتقدمين ، وعلى رغم تحذير الرسول صلى الله عليه وآله من الاقدام على هذا
العمل الخطير وكون مرتكبه يتبوأ النار إذا كان متعمداً ، فقد سرت هذه

(١) التوحيد : ١٥٢ / ١١ .

(٢) التوحيد : ١٧٦ / ٧ ، عيون أخبار الرضا : ١٢٦ / ٢١ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٣٣

الظاهرة الخطيرة إلى تراث الحديث ، فكان لأهل البيت عليهم السلام كلمتهم في هذا الصدد لتشخيص المفترين وردّ انتحال المبطلين وإبطال تحريف الغالين والوضاعين.

عن مسعدة بن صدقة ، قال : « قيل لأبي عبدالله عليه السلام : إنّ الناس يروون أنّ علياً عليه السلام قال على منبر الكوفة : أيها الناس ، إنّكم ستدعون إلى سبّي فسبّوني ، ثمّ تدعون إلى البراءة منّي ، فلا تبرءوا منّي .

فقال عليه السلام : ما أكثر ما يكذب الناس على علي عليه السلام ! ثمّ قال : إنّما قال : إنّكم ستدعون إلى سبّي فسبّوني ، ثمّ تدعون إلى البراءة منّي وإلّا لعلى دين محمد صلى الله عليه وآله ، ولم يقل : لا تبرءوا منّي » ^(١).

وعن عبيد بن زرارة ، قال : « قلت لأبي عبدالله عليه السلام : إنّ الناس يروون أنّ علياً عليه السلام كتب إلى عامله بالمدائن أن يشتري له جارية ، فاشتراها وبعث بها إليه ، وكتب إليه أنّ لها زوجاً ، فكتب إليه علي عليه السلام أن يشتري بضعها فاشتراها ؟ فقال : كذبوا على علي عليه السلام ، أعليّ يقول هذا ؟! » ^(٢).

وعن زرارة ، عن أبي عبدالله عليه السلام : « إنّ أهل الكوفة قد نزل فيهم كذاب . أمّا المغيرة : فأنّه يكذب على أبي — يعني أبا جعفر عليه السلام — قال : حدّثه أنّ نساء آل محمد إذا حضن قضين الصلاة ، وكذب والله ، عليه لعنة الله ، ما كان من ذلك شيء ولا حدّثه .

(١) الكافي ٢ : ٢١٩ / ١٠ .

(٢) الكافي ٥ : ٤٨٣ / ٥ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٣٤
وأما أبو الخطاب : فكذب عليّ ، وقال : إتي أمرته أن لا يصلي هو
وأصحابه المغرب حتى يروا كوكب كذا يقال له : القنطاني ، والله إن ذلك
لكوكب ما أعرفه » ^(١).

وعن محمد بن زيد الطبري قال : « كنت قائماً على رأس الرضا عليه السلام
بخراسان وعنده عدّة من بني هاشم ، وفيهم إسحاق بن موسى بن عيسى
العباسي ، فقال : يا إسحاق ، بلغني أنّ الناس يقولون : إنا نزعم أنّ الناس عبيد
لنا ، لا وقرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله ما قلته قطّ ، ولا سمعته من آبائي قاله ، ولا
بلغني عن أحد من آبائي قاله ، ولكني أقول : الناس عبيد لنا في الطاعة ، موالٍ
لنا في الدين ، فليبلغ الشاهد الغائب » ^(٢).

وعن أبي ولاد الخنّاط ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « قلت له : جعلت
فذاك ، يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيورٍ خضرٍ حول العرش ؟
فقال : لا ، المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طيرٍ ، ولكن
في أبدانٍ كأبدانهم » ^(٣).

قاعدة تشخيص الكذب والوضع :

حذر أئمة أهل البيت عليهم السلام أصحابهم من دسّ الغلاة والكذابين
والوضاعين في الحديث من أمثال أبي سمينة ، وأبي الخطاب محمد بن
أبي زينب ، والمغيرة بن سعيد وغيرهم ، وأنكروا كتبهم وشخصوا أخبارهم

(١) رجال الكشي : ٢٢٨ / ٤٠٧ .

(٢) الكافي ١ : ١٨٧ / ١٠ ، أمالي الشيخ المفيد : ٢٥٣ .

(٣) الكافي ٣ : ٢٤٤ / ١ .

التي عرضت عليهم ، مؤكّدين قاعدة عامة حاکمة في قبول الحديث أو رده ، وهي عرض الحديث على القرآن والسنة ، أو وجود شاهد عليه من أحاديثهم المتقدّمة ، لأنّ كلام آخرهم مثل كلام أولهم ، وكلام أولهم مصدّق لكلام آخرهم ، كما أن مع كلّ قول لهم حقيقة ، وعليه نور ، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك من قول الشيطان.

عن محمد بن عيسى ، عن يونس بن عبد الرحمن : « إنّ بعض أصحابنا سأله وأنا حاضر ، فقال له : يا أبا محمد ، ما أشدّك في الحديث ، وأكثر إنكارك لما يرويه أصحابنا ! فما الذي يحملك على ردّ الأحاديث ؟

فقال : حدثني هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول : لا تقبلوا علينا حديثاً إلّا ما وافق القرآن والسنة ، أو تجدون معه شاهداً من أحاديث المتقدّمة ، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي ، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا صلّى الله عليه وآله ، فإننا إذا حدثنا قلنا : قال الله عزّوجلّ ، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله .

قال يونس : وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ، ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين ، فسمعت منهم وأخذت كتبهم ، فعرضتها من بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام ، فأنكر منها أحاديث كثيرة أن تكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام ، وقال لي : إنّ أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام ، لعن الله أبا الخطاب ، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسّون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٣٦
عبدالله عليه السلام ، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن ، فإننا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة ، إنا عن الله وعن رسوله نحدّث ، ولا نقول : قال فلان وفلان ، فيتناقض كلامنا ، إن كلام آخرنا مثل كلام أولنا ، وكلام أولنا مصدّق لكلام آخرنا ، فإذا أتاكم من يحدّثكم بخلاف ذلك فردّوه عليه وقولوا : أنت أعلم وما جئت به ، فإن مع كلّ قول منا حقيقة ، وعليه نور ، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك من قول الشيطان » ^(١).

تطبيقات لهذه القاعدة :

يقدم لنا الإمام أبو جعفر الجواد عليه السلام تطبيقاً عملياً لهذه القاعدة ، من خلال مناظرته ليحيى بن أكثم .محضر المأمون وجماعة من أركان دولته وخاصته ، حيث يدلي ابن أكثم بجملة أحاديث موضوعة في فضل أبي بكر وعمر ، فيردها الإمام عليه السلام من خلال عرضها على الكتاب والسنة . قال يحيى : « ما تقول يا بن رسول الله في الخبر الذي روي أن جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : يا محمد ، إن الله يقرؤك السلام ، ويقول لك : سل أبا بكر هل هو راضٍ عني ، فأنتي راضٍ عنه ؟

فقال عليه السلام : ... يجب على صاحب هذا الخير أن يأخذ مثال الخير الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع : قد كثرت عليّ الكذابة وستكثر ، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي فما وافق كتاب الله وسنتي فخذوا به ، وما خالف كتاب الله

(١) رجال الكشي : ٢٢٤ / ٤٠١ .

الفصل الأول : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٣٧
وسنتي فلا تأخذوا به.

وليس يوافق هذا الخبر كتاب الله ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ (١) فالله عز وجل خفي عليه رضا أبي بكر من سخطه حتى سأل عن مكنون سرّه؟! هذا مستحيل في العقول.

فقال يحيى : قد روي أن النبي ﷺ قال : لو لم أبعث لبعث عمر.

فقال عليّ : كتاب الله أصدق من هذا الحديث ، يقول الله في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾ (٢) فقد أخذ الله ميثاق النبيين ، فكيف يمكن أن يستبدل ميثاقه ؟ وكان الأنبياء لم يشركوا طرفة عين ، فكيف يبعث بالنبوة من أشرك ، وكان أكثر أيامه مع الشرك بالله؟! وقال رسول الله ﷺ : بُنِيتُ وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ.

قال يحيى : وقد روي أن النبي ﷺ قال : ما احتبس الوحي عني قط إلّا ظننته قد نزل على آل الخطاب.

فقال عليّ : وهذا محال أيضاً ؛ لآته لا يجوز أن يشك النبي ﷺ في نبوته ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنَ النَّاسِ ﴾ (٣) ، فكيف يمكن أن تنتقل النبوة من اصطفاه الله إلى من أشرك به!؟

قال يحيى : روي أن النبي ﷺ قال : لو نزل العذاب لما نجى منه إلّا

(١) سورة ق : ٥٠ / ١٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٧ .

(٣) سورة الحج : ٢٢ / ٧٥ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٣٨
عمر.

فقال عليه السلام : وهذا محال أيضاً ، إن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ^(١) فأخبر سبحانه أنه لا يعذب أحداً مادام فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما داموا يستغفرون الله تعالى ^(٢) .

٤ — تكذيب خبر أبي بكر في الاستحواذ على ميراث النبي صلى الله عليه وآله :

لأهل البيت عليهم السلام كلمة واحدة ، وهي أن الخبر الذي جاء به أبو بكر ونسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله واستحوذ به على فذك ، لا أصل له ولا واقع ، فهو محض افتراء ليس إلأ.

وقد ثبت عن الزهراء عليها السلام أنها ردّت ذلك الخبر مستندة إلى ظاهر الكتاب وصحيح السنة.

وفي هذا تقول عائشة : « إنّ الناس اختلفوا في ميراث رسول الله ، فما وجدوا عند أحدٍ من ذلك علماً ، فقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ^(٣) .

وإنما روى أبو بكر هذا الحديث لما أجمع على منع فاطمة الزهراء عليها السلام فذك ، وصرف عاملها منها ، فلائنت خمارها على رأسها ، واشتملت بجلباها ، وأقبلت في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذبولها ، ما تحرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخلت عليه وهو في حشدٍ من

(١) سورة الأنفال : ٨ / ٣٣ .

(٢) الاحتجاج / الطبرسي ٢ : ٢٤٥ .

(٣) الصواعق المحرقة : ٣٤ ، كتر العمال ٧ : ٢٢٦ .

المهاجرين والأنصار وغيرهم ، وكان مما قالت عليها السلام : « أيها المسلمون ، أغلب على إرثي؟! يا ابن أبي قحافة ، أفي كتاب الله أن تترث أباك ولا أرت أبي ، لقد جئت شيئاً فرياً ، أفعلى عمدٍ تركتم كتاب الله ، ونبذتموه وراء ظهوركم؟! إذ يقول : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ ^(١) وقال فيما اقتص من خير يحيى بن زكريا عليه السلام إذ يقول : ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ^(٣) ، وقال : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ ^(٤) ، وقال : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ^(٥).

وزعمتم أن لا حظوة لي ولا إرث من أبي ، ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي عليه السلام؟! أم تقولون أهل ملتين لا يتوارثان؟! أولست أنا وأبي من أهل ملة واحدة؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟!

فجاء في جواب أبي بكر : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يقول : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة . فلم تقبل الزهراء عليها السلام حديثه لأنه يعارض كتاب الله صراحة .

(١) سورة النمل : ٢٧ / ١٦ .

(٢) سورة مريم : ١٩ / ٥ و ٦ .

(٣) سورة الأنفال : ٨ / ٧٥ .

(٤) سورة النساء : ٤ / ١١ .

(٥) سورة البقرة : ٢ / ١٨٠ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٤٠
على أن فدك رُدّت إلى بني فاطمة عليها السلام في أحقاب عدّة في زمان
الدولتين الأموية والعباسية ، الأمر الذي يشير إلى عدم فئاعة مَنْ ردها إلى
نصاها بذلك الحديث المكذوب .

٥ — بيان ما كان معلقاً بشرط :

هناك بعض الأحاديث معلقة بشرط معين ، ولا تصح إلّا مع وجوده ،
عن محمد بن موسى بن نصر الرازي ، عن أبيه ، قال : « سئل الرضا عليه السلام عن
قول النبي صلى الله عليه وآله : أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم . وعن قوله صلى الله عليه وآله :
دعوا لي أصحابي . فقال عليه السلام : هذا صحيح ، يريد من لم يغيّر بعده ولم يبدّل .
قيل : وكيف نعلم أنّهم قد غيروا وبدّلوا ؟ قال : لما يروونه من أنّه صلى الله عليه وآله قال :
ليذادنّ رجال من أصحابي يوم القيامة عن حوضي ، كما تذاذ غرائب الإبل
عن الماء ، فأقول : يا ربّ أصحابي أصحابي ؛ فيقال لي : إنّك لا تدري ما
أحدثوا بعدك ، فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : بعداً لهم وسحقاً ، أفترى هذا
لمن لم يغيّر ولم يبدّل ؟ » ^(١) .

٦ — بيان الخاصّ والعامّ والمفصّل والمجمل :

من الحديث ما هو مجمل لا يدل على المراد إلّا بتفصيله ، ومنه ما هو
عام لا يعرف وجهه إلّا بتخصيصه ، ومنه ما فيه رخصة ، وقد ورد إلينا
الكثير من الأخبار المروية عنهم عليهم السلام في تفصيل المجمل وتخصيص العام ،
وبيان ما فيه رخصة ، منها ما رواه حماد بن عثمان ، قال : « قلت لأبي

(١) عيون أخبار الرضا ٢ : ٨٧ / ٣٣ .

الفصل الأول : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٤١
عبدالله ﷺ : جعلت فداك ، ما معنى قول رسول الله ﷺ : إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار ؟ فقال : المعتقون من النار هم ولد بطنها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأمّ كلثوم « (١) .

وعن مهران بن أبي نصر ، عن أخيه رباح ، قال : « قلت لأبي عبدالله ﷺ : إنا نروي بالكوفة أنّ علياً ﷺ قال : إنّ من تمام الحجّ والعمرة أن يحرم الرجل من دويرة أهله . فهل قال هذا علي ﷺ ؟ فقال : قد قال ذلك أمير المؤمنين ﷺ لمن كان مترله خلف الواقيت ، ولو كان كما يقولون ، ما كان يمنع رسول الله ﷺ أن لا يخرج بشيابه إلى الشجرة » (٢) .

وعن أبي بكر الحضرمي ، قال : « قال أبو عبد الله ﷺ : إني خرجت بأهلي ماشياً فلم أهدأ حتى أتيت الجحفة ، وقد كنت شاكياً ، فجعل أهل المدينة يسألون عني فيقولون : لقيناه وعليه ثيابه وهم لا يعلمون ، وقد رخص رسول الله ﷺ لمن كان مريضاً أو ضعيفاً أن يحرم من الجحفة » (٣) .

٧ — بيان مفهوم الحديث وشرح غريبه :

لا يخفى أن من الحديث ما يلفه الإبهام ويكتنفه الغموض ، الأمر الذي جعل علماء العربية يوجهون فائق عنايتهم إلى شرحه وبيان معانيه ، ولعل من روادهم النضر بن شميل (ت / ٢٠٣ هـ) ، وقطرب (ت / ٢٠٦ هـ) ،

(١) معاني الأخبار : ١٠٦ / ٣ .

(٢) الكافي ٤ : ٣٢٢ / ٥ .

(٣) الكافي ٤ : ٣٢٤ / ٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٤٢

وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت / ٢٠٩ هـ) ، وأول تصنيف وصلنا في هذا الصدق من أبي عبيد القاسم بن سلام (ت / ٢٢٤ هـ) ، وقد أسهم أئمة الهدى عليهم السلام في رفد مكتبة غريب الحديث بكثير من الروايات التي تعنى بمعاني الأخبار وشرح غريبها ، سواء من خلال بيان مفهومها العام ، أو من حيث بيان معاني مفرداتها ، وقد أفرده الشيخ الصدوق (ت / ٣٨١ هـ) بكتاب سماه (معاني الأخبار) ونظرة سريعة إليه تكشف عن مقدار جهودهم عليهم السلام في هذا الاتجاه.

ومن ذلك ما رواه عبد المؤمن الأنصاري ، قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : انّ قوماً يروون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : اختلاف أمي رحمة ؟ فقال : صدقوا ، فقلت : إن كان اختلافهم رحمة ، فاجتماعهم عذاب !؟

قال : ليس حيث تذهب وذهبوا ، وإنما أراد قول الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ^(١) فأمرهم أن ينفروا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويختلفوا إليه فيتعلّموا ، ثم يرجعوا إلى قومهم فيعلّموهم. إنّما أراد اختلافهم من البلدان ، لا اختلافاً في دين الله ، إنّما الدين واحد ، إنّما الدين واحد » ^(٢).

وعن أبي إسحاق ، قال : « قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام : ما معنى قول النبي صلى الله عليه وآله : من كنت مولاة فعليّ مولاة ؟ قال : أخبرهم أنّه الإمام بعده » ^(٣).

(١) سورة التوبة : ٩ / ١٢٢.

(٢) علل الشرائع : ٤ / ٨٥.

(٣) معاني الأخبار : ٦٥ / ١.

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٤٣

وعن أبان بن تغلب قال : « سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول النبي ﷺ : من كنت مولاه فعلي مولاه. فقال : يا أبا سعيد ، تسأل عن مثل هذا؟! أعلمهم أنّه يقوم فيهم مقامه » (١).

وعن المفضل بن عمر ، قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : أخبرني عن قول رسول الله ﷺ في فاطمة عليها السلام : إنّها سيّدة نساء العالمين ، أهى سيّدة نساء عالمها؟ فقال : ذاك لمريم ، كانت سيّدة نساء عالمها ، وفاطمة سيّدة نساء العالمين من الأولين والآخريين » (٢).

وعن غياث بن إبراهيم ، عن الصادق جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه علي بن الحسين بن علي عليه السلام قال : « سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى قول رسول الله ﷺ : إني مخلف فيكم الثقلين ؛ كتاب الله وعترتي. من العترة؟ فقال : أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين ، تاسعهم مهديهم وقائمهم ، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم حتى يردوا على رسول الله حوضه » (٣).

وعن مسمع أبي سيار ، عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ رجلاً قال له : « إنّ من قبلنا يروون أنّ الله عزّ وجلّ يبغض بيت اللحم؟ فقال : صدقوا ، وليس حيث ذهبوا ، إنّ الله عزّ وجلّ يبغض البيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس » (٤).

(١) معاني الأخبار : ٦٦ / ٢.

(٢) معاني الأخبار : ١٠٧ ، بحار الأنوار ٤٣ : ٢٦ / ٢٥.

(٣) إكمال الدين : ٢٤١ / ٦٤.

(٤) الكافي ٦ : ٣٠٩ / ٦.

ومما يعنى ببيان معاني مفردات الحديث ما رواه سليمان بن خالد ، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « أعوذ بك من شرّ السامة والهامة والعمامة واللاماة . فقال : السامة : القرابة ، والهامة : هوام الأرض ، واللاماة : لم الشياطين ، والعمامة : عمامة الناس » ^(١) .

ونجد أن من الحديث ما يؤدي عند بعض الجامدين على الظواهر إلى انحراف في العقيدة ، إذا لم يصلهم معناه ، ومن ذلك ما رواه عبد السلام بن صالح الهروي ، قال : قلت لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام : « يا ابن رسول الله ، ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث : أن الموءمنين يزورون ربّهم من منازلهم في الجنّة ؟

فقال عليه السلام : يا أبا الصّلت ، إنّ الله تبارك وتعالى فضّل نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله على جميع خلقه من النبيّين والملائكة ، وجعل طاعته طاعته ، ومتابعته متابعته ، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ^(٢) ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ^(٣) .

وقال النبي صلى الله عليه وآله : من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله . ودرجة النبي صلى الله عليه وآله في الجنّة أرفع الدرجات ، فمن زاره إلى درجته في الجنّة من منزله فقد زار الله تبارك وتعالى — إلى أن قال : — يا أبا الصّلت ، إنّ الله تبارك وتعالى لا

(١) معاني الأخبار : ١٧٣ ، بحار الأنوار : ٩٥ : ١٤١ .

(٢) سورة النساء : ٤ / ٨٠ .

(٣) سورة الفتح : ٤٨ / ١٠ .

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٤٥
يُوصف بمكانٍ ، ولا تُدرّكه الأبصار والأوهام »^(١).

تدوين الحديث :

لعلّ من أبرز معالم التصحيح في ميدان الحديث الشريف ، هو الانفتاح الواسع على تدوين الحديث حيث لم يُمنع في مدرسة أهل البيت عليهم السلام منذ فجر الإسلام حتى آخر عهد صدور الحديث عنهم عليهم السلام ، أي في آخر الغيبة الصغرى للإمام المهدي عليه السلام وذلك (سنة / ٣٢٩ هـ) ، وقد دأبوا عليهم السلام على حث أصحابهم كي يباشروا الكتابة وقيّدوا العلم ، ودعّوهم إلى الحفاظ على مدوّناتهم الحديثية ، كما تركوا آثاراً في الحديث لا يزال بعضها ماثلاً إلى اليوم ، وفي المقابل تجد أن سلطة الخلافة تدعو إلى حظر تدوين الحديث الشريف منذ رحيل المصطفى صلى الله عليه وآله إلى زمان عمر بن عبد العزيز ، ومن أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تدعو إلى تقييد العلم وكتابته ، ما رواه الحارث ، عن عليّ عليه السلام قال : « قيّدوا العلم ، قيّدوا العلم »^(٢).
وعن حبيب بن جري ، قال : قال علي عليه السلام : « قيّدوا العلم بالكتاب »^(٣).
وعن المفضل بن عمر ، قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : « اكتب وبثّ علمك في إخوانك ، فإن مت فأورث كتبك بنيك ، فإنّه يأتي على الناس زمان هرج لا يأمنون فيه إلّا بكتبهم »^(٤).

(١) التّوحيد : ١١٧ / ٢١ ، الاحتجاج : ٤٠٨ .

(٢) تقييد العلم / الخطيب البغدادي : ٨٩ .

(٣) تقييد العلم : ٩٠ .

(٤) الكافي ١ : ٥٢ / ١١ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٤٦

وعن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « اكتبوا ، فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا » ^(١).

وعن عبيد بن زرارة ، قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : « احتفظوا بكتبكم ، فإنكم سوف تحتاجون إليها » ^(٢).

وكان بعض الكتب المتداولة عند أهل البيت عليهم السلام وبعض الأصحاب بخط أمير المؤمنين عليه السلام أو إملائه ، فقد كتب علي عليه السلام صحيفة من حديث النبي صلى الله عليه وآله كان يحملها في قائم سيفه ^(٣) ، وله عليه السلام كتاب كبير يعرف بكتاب علي ، وهو من إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخطه عليه السلام ^(٤) ، وقد احتفظ به أهل البيت عليهم السلام وتوارثوه ، فقد كان عند الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام ^(٥).

وكان لعلي بن أبي رافع كتاب من إملاء أمير المؤمنين عليه السلام في فنون من فقه البوضوء والصلاة وسائر الأبواب ^(٦) ، وكتب أمير المؤمنين عليه السلام صحفاً للحارث الأعور المتوفى (٦٥ هـ) فيها علم كثير ^(٧).

وللإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام (الصحيفة السجّادية) و (رسالة الحقوق) وأثر عنهم عليهم السلام (مسند الإمام الكاظم عليه السلام) و (مسائل علي بن

(١) الكافي ١ : ٥٢ / ٩ .

(٢) الكافي ١ : ٥٢ / ١٠ .

(٣) فتح الباري ١ : ١٦٦ ، تدوين السنة / الجلاي : ٥٢ .

(٤) تدوين السنة / الجلاي : ٦٢ .

(٥) رجال النجاشي : ٣٦٠ .

(٦) رجال النجاشي : ٦ / ٢ .

(٧) الطبقات الكبرى / ابن سعد ٦ : ١٦٨ .

جعفر) عن أخيه الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام و (صحيفة الإمام الرضا عليه السلام) و (رسالته الذهبية) في الطبّ وغيرها كثير ^(١) .

وقد انعكس هذا المنهج على عمل أصحابهم ، فراحوا يدوّنون العلم فور إلقائه . روي بالإسناد عن أبي إسحاق السبيعي ، عن الحارث الأعور ، قال : « خطب أمير المؤمنين عليه السلام خطبة بعد صلاة العصر ، فعجب الناس من حسن صفته ، وما ذكره من تعظيم الله جلّ جلاله ، قال أبو إسحاق : فقلت للحارث : أو ما حفظتها ؟ قال : قد كتبتها ، فأملأها علينا من كتابه : الحمد لله الذي لا يموت ، ولا تنقضي عجائبه ... » ^(٢) .

وعلى هذا السياق دوّن بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام كتباً وصحفاً ونسخاً من حديثه وخطبه ومواعظه ، وقد كان لحجر بن عدي الكندي الشهيد سنة (٥١ هـ) صحيفة فيها حديث أمير المؤمنين عليه السلام ^(٣) . وكان زيد بن وهب الجهني المتوفى (٩٦ هـ) قد جمع خطب أمير المؤمنين عليه السلام على المنابر في الجمع والأعياد وغيرها في كتاب ^(٤) . ولعبيد الله بن الحرّ الجعفي المتوفى (٦٨ هـ) نسخة يرويها عنه عليه السلام ^(٥) ، وغير هؤلاء كثير .

(١) راجع : تدوين السنّة / الجلالى : ١٣٥ — ١٨٦ .

(٢) الكافي ١ : ١٤١ / ٧ ، التوحيد : ٣١ / ١ .

(٣) الطبقات الكبرى ٦ : ٢٢٠ .

(٤) الفهرست / الطوسي : ٧٢ / ٢٩١ .

(٥) رجال النجاشي : ٩ / ٦ .

وصنّف أصحاب الأئمّة عليهم السلام في الأحاديث المروية من طرقهم عليهم السلام والمستمدّة من مدينة العلم النبوي ما يزيد على ستة آلاف وستمائة بين أصل أو كتاب أو نسخة^(١) ، وامتاز من بين تلك الكتب أربعمائة كتاب ، عرفت عند الشيعة بالأصول الأربعمائة^(٢) ، وقد استقرّ الأمر على اعتبارها والتعويل عليها والاحتفاظ بها حتى بقي بعضها إلى يومنا هذا.

ومن هنا كان لهم عليهم السلام الدور الأكبر في الحفاظ على السنة النبوية المشرّفة من أن تمسّها يد النسيان والضياع ، أو تطالها يد التحريف والتغيير.

تصحيح كتب الحديث وأصوله :

وهذا من المعالم الأساسية في تصحيح الحديث ، حيث وقف الأئمّة عليهم السلام على أصول أصحابهم التي قدّمنا ذكرها مباشرة فقرأوها ونظروا فيها أو قرئت عليهم ، وقالوا فيها كلمتهم ، مثل كتاب عبيد الله الحلبي الذي عُرض على الإمام الصادق عليه السلام ، وكتاب يونس بن عبدالرحمن والفضل بن شاذان المعروضين على الإمام العسكري عليه السلام وغيرها ، وفيما يلي نسجل بعض الأمثلة على جهودهم عليهم السلام في هذا المضمار.

عن أبي الصباح قال : « سمعت كلاماً يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن

(١) راجع : وسائل الشيعة ٣٠ : ١٦٥ ، أعيان الشيعة ١ : ١٤٠ .

(٢) راجع : دائرة المعارف الإسلامية ٥ : ٣٢ ، أعيان الشيعة ١ : ١٤٠ ، الذريعة ٢ : ١٢٥ — ١٦٧ .

علي عليه السلام ، وعن ابن مسعود ، فعرضته على أبي عبد الله عليه السلام فقال : هذا قول رسول الله صلى الله عليه وآله أعرفه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الشقي من شقي في بطن أمه » ، وذكر الحديث بطوله ^(١).

وعن محمد بن فلان الواقفي قال : « كان لي ابن عمّ يقال له الحسين ابن عبد الله ، وكان زاهداً ، فقال له أبو الحسن عليه السلام : اذهب فتفقّه واطلب الحديث ، قال : عمّن ؟ قال : عن فقهاء أهل المدينة ، ثم اعرض عليّ قال : فذهب فكتب ، ثم جاء فقرأه عليه فأسقطه كله » ^(٢).

عن أبي السري سهل بن يعقوب بن إسحاق ، عن الإمام الهادي عليه السلام ، « قال : قلت له ذات يوم : يا سيدي ، قد وقع لي اختيار الأيام عن سيدنا الصادق عليه السلام مما حدثني به الحسن بن عبد الله بن مطهر ، عن محمد بن سليمان الديلمي ، عن أبيه ، عن سيدنا الصادق عليه السلام في كل شهر فأعرضه عليك ؟ فقال لي : افعل. فلما عرضته عليه وصححته ، قلت له : يا سيدي ، في أكثر هذه الأيام قواطع عن المقاصد ، لما ذكر فيها من النحس والمخاوف ، فتدلّني على الاحتراز من المخاوف فيها ، فإنما تدعوني الضرورة إلى التوجه في الحوائج فيها ؟ » إلى آخر الحديث ^(٣).

وعن أبي عمرو المتطرب قال : « عرضت هذه الرواية على أبي عبد الله عليه السلام فقال : نعم هي حقّ ، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمر عمّاله

(١) الكافي ٨ : ٨١ / ٣٩ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ٨٤ / ٢٨ .

(٢) الكافي ١ : ٣٥٣ / ٨ ، الارشاد ٢ : ٢٢٣ .

(٣) الأمالي / الطوسي : ٢٧٦ / ٥٢٩ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٥٠
بذلك» (١).

وعن الحسن بن الجهم قال: «عرضته على أبي الحسن الرضا عليه السلام
فقال لي: ارووه، فإنه صحيح» (٢).

وعن ابن فضال، ومحمد بن عيسى، عن يونس، جميعاً عن الرضا عليه السلام
قالا: «عرضنا عليه الكتاب فقال: هو حق، وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يأمر
عماله بذلك، قال: أفتى عليه السلام في كلِّ عظمٍ له منَّ فريضة مسماة، إذا كسر فجير
على غير عثم ولا عيب، فجعل فريضة الدية ستة أجزاء»، إلى آخر
الحديث (٣).

وعن أحمد بن أبي خلف قال: «كنت مريضاً، فدخل عليّ
أبو جعفر عليه السلام يعودني عند مرضي، فإذا عند رأسي كتاب يوم وليلة، فجعل
يتصفّحه ورقة ورقة حتى أتى عليه من أوله إلى آخره وجعل يقول: رحم
الله يونس، رحم الله يونس، رحم الله يونس» (٤).

وعن داود بن القاسم الجعفري قال: «أدخلت كتاب يوم وليلة الذي
ألّفه يونس بن عبد الرحمن على أبي الحسن العسكري عليه السلام، فنظر فيه
وتصفّحه كلّهُ، ثمَّ قال: هذا ديني ودين آبائي، وهو الحقّ كلّهُ» (٥).

(١) الفقيه ٤ : ٥٤ / ١٩٤.

(٢) الكافي ٧ : ٣٢٤ / ٩.

(٣) التهذيب ١٠ : ٢٩٥ / ١١٤٨.

(٤) رجال الكشي ٢ : ٤٨٤ / ٩١٣، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٠ / ٧٤.

(٥) رجال الكشي ٢ : ٤٨٤ / ٩١٥، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٠ / ٧٥.

الفصل الأوّل : معالم التصحيح في التفسير والحديث ٥١

وعنه ، قال : « عرضت على أبي محمد العسكري عليه السلام كتاب يوم وليلة ليونس فقال لي : تصنيف من هذا ؟ قلت : تصنيف يونس مولى آل يقطين ، فقال : أعطاه الله بكلّ حرفٍ نوراً يوم القيامة » ^(١).

وفي حديث آخر عن بورق البوشجاني ، قال : « خرجت إلى سرّ من رأى ومعي كتاب يوم وليلة ، فدخلت على أبي محمد عليه السلام وأريته ذلك الكتاب ، وقلت له : إن رأيت أن تنظر فيه ؟ فلمّا نظر فيه وتصفّحه ورقة ورقة ، قال : هذا صحيح ، ينبغي أن تعمل به » ^(٢). وفي هذا الكلام ما لا يخفى من الحثّ على سلامة التصنيف في الحديث.

وذكر النجاشي أنّ كتاب عبيد الله بن علي الحلبي عُرض على الصادق عليه السلام فصححه واستحسنه ^(٣).

وقال الشيخ في الفهرست : « عبيدالله بن علي الحلبي. له كتاب مصنف معوّل عليه ، وقيل : إنّه عُرض على الصادق عليه السلام ، فلما رآه استحسنه وقال : ليس لهؤلاء — يعني المخالفين — مثله » ^(٤).

وقال الشيخ الطوسي في ترجمة عبيد بن محمد البجلي : « .. عبيد بن محمد بن قيس البجلي. له كتاب ، يرويه عن أبيه... وقال أبوه : عرضنا هذا

(١) رجال النجاشي : ٤٤٧ / ١٢٠٨ ، رجال ابن داود : ٢٠٧ / ١٧٤٣ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٢ / ٨٠.

(٢) رجال الكشي ٢ : ٥٣٨ / ١٠٢٣ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٠ / ٧٦.

(٣) وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠٢ / ٨١ ، رجال النجاشي : ٢٣١ / ٦١٢.

(٤) الفهرست : ١٠٦ / ٤٥٥ ، رجال ابن داود : ١٢٥.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٥٢
الكتاب على أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام ، فقال : هذا قول
أمير المؤمنين عليه السلام ، إنه كان يقول إذا صَلَّى قال في أول الصلاة... وذكر
الكتاب « (١) ».

وذكر الكشي أن الفضل بن شاذان عرض كتابه على الإمام
العسكري عليه السلام ، فتناوله منه ونظر فيه ، فترحم عليه وقال : « أغبط أهل
خراسان لمكان الفضل بن شاذان ، وكونه بين أظهرهم » (٢).

وقال النجاشي في ترجمة عبد الله بن أبحر : « ... شيخ من أصحابنا ،
ثقة ، وبنو أبحر بيت بالكوفة أطباء ، وأخوه عبد الملك بن سعيد ثقة ، عمّر
إلى سنة أربعين ومائتين. له كتاب الديات ، رواه عن آبائه ، وعرضه على
الرضا عليه السلام ، والكتاب يعرف بين أصحابنا بكتاب عبد الله بن أبحر » (٣).

(١) الفهرست : ١٠٨ / ٤٥٩ .

(٢) رجال ابن داود : ١٥١ / ١٢٠٠ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ١٠١ / ٣٣٣٢٢ .

(٣) رجال النجاشي : ٢١٧ / ٥٦٥ .

الفصل الثاني

معالم التصحيح في العقائد

أولى أئمة أهل البيت عليهم السلام مسألة التصحيح العقائدي أهمية فائقة ؛ لأنّ العقيدة أساس الدين في كلّ تشريع ، وهي المقصود الأول من مقاصد الإصلاح الديني ، فسعوا إلى تخلص أصول الاعتقاد من الاتجاهات المدمّرة للفكر والعقيدة ، وتبنّوا إصلاح ما ضلّ من العقائد والمفاهيم والأفكار ، وما فسد من الأعمال ، وكشفوا عن جنيات المحرّفين والمبذّلين ، وسعوا إلى إعادة التوحيد إلى أصوله الخالصة من تضليل المجرة والمرجئة والمعطلة وغيرها من الفرق التي نشأ أغلبها في أحشاء السياسة ، وأرشدوا الضالين إلى ينابيعه الصافية ، وردّوا العقول الضالة إلى رشدها ، فلم يدعوا حجة لمحتجّ ، ولا معذرة لمعتذر. وفي كتاب (التوحيد) للشيخ الصدوق ، وكتاب التوحيد من (اصول الكافي) المزيد من الأمثلة حول الإصلاح العقائدي الذي مارسه أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقبل الوقوف في أهم محطات التصحيح في الاتجاه العقائدي ، لابدّ أولاً من الإشارة إلى دورهم عليهم السلام في تربية أصحابهم عقائدياً ضمن اتجاهين :

الأول : مباحثة أصحابهم في المسائل الكلامية وتصحيحها :

كان هشام بن الحكم واحداً من الذين سألوا الإمام الصادق عليه السلام عن مئات المسائل الكلامية ، وقد تعرض الإمام عليه السلام خلال أجوبته للوضع الفكري السائد آنذاك بالتقويم والتصحيح ، قال هشام بن الحكم : « سألت أبا عبد الله عليه السلام .بمى عن خمس مئة حرف من الكلام ، فأقبلت أقول : يقولون كذا وكذا ، قال : فيقول : قل كذا وكذا ، قلت : جعلت فداك ، هذا الحلال وهذا الحرام ، أعلم أنك صاحبه ، وأنتك أعلم الناس به ، وهذا هو الكلام . فقال لي : ويك يا هشام ! لا يحتج الله تبارك وتعالى على خلقه بحجة لا يكون عنده كل ما يحتاجون إليه »^(١).

الثاني : استعراض عقائد أصحابهم وتصحيحها :

لدينا هنا نموذجان جديران بالأهمية ، لما فيهما من استعراض لأصول الاعتقاد والفرائض الواجبة في الإسلام ، تولى التصحيح في أحدهما الإمام الصادق عليه السلام ، وفي الآخر الإمام الهادي عليه السلام .

١ - عن عمرو بن حريث قال : « دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو في منزل أخيه عبد الله بن محمد... فقلت له : جعلت فداك ، ألا أقصّ عليك ديني ؟ فقال : بلى ، قلت : أدين الله بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم شهر رمضان ،

(١) الكافي ١ : ٢٦٢ / ٥ .

وحج البيت ، والولاية لعلي أمير المؤمنين بعد رسول الله ﷺ ، والولاية للحسن والحسين ، والولاية لعلي بن الحسين ، والولاية لمحمد بن علي ولك من بعده (صلوات الله عليهم أجمعين) وأنكم أئمتي ، عليه أحيا ، وعليه أموت ، وأدين الله به .

فقال : يا عمرو ، هذا والله دين الله ، ودين آبائي الذي أدين الله به في السرّ والعلانية ، فاتق الله وكفّ لسانك إلّا من خير ، ولا تقلّ إني هديت نفسي ، بل الله هداك ، فأدّ شكر ما أنعم الله عزّ وجلّ به عليك ، ولا تكن ممن إذا أقبل طعن في عينه ، وإذا أدبر طعن في قفاه... » ^(١) .

٢ - وعن عبد العظيم الحسيني ، قال : « دخلت على سيدي علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، فلما بصر بي قال لي : مرحباً بك يا أبا القاسم ، أنت ولينا حقاً . قال : فقلت له : يا ابن رسول الله ، إني أريد أن أعرض عليك ديني ، فإن كان مرضياً أثبت عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ ؟ فقال : هات يا أبا القاسم .

فقلت : إني أقول إن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثلته شيء ، خارج عن الحدين ؛ حد الإبطال ، وحد التشبيه ، وإنه ليس بجسم ولا صورة ، ولا عرض ولا جوهر ، بل هو مجسم الأجسام ، ومصور الصور ، وخالق الأعراض والجواهر ، ورب كل شيء ومالكة ، وجاعله ومحدثه ، وأن

(١) الكافي ٢ : ٢٣ / ١٤ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٥٦
محمدًا صلى الله عليه وآله عبده ورسوله خاتم النبيين ، فلا نبي بعده إلى يوم القيامة ،
وأقول إن الإمام والخليفة وولي الأمر من بعده أمير المؤمنين علي بن أبي
طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم علي بن الحسين ، ثم محمد بن علي ،
ثم جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن
علي ، ثم أنت يا مولاي.

فقال عليه السلام : ومن بعدي الحسن ابني ، فكيف للناس بالخلف من بعده ؟
قال : فقلت : وكيف ذاك يا مولاي ؟ قال : لأنه لا يرى شخصه ، ولا يحلّ ذكره
باسمه حتى يخرج فيما الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

قال : فقلت : أقررت ، وأقول : إن وليهم ولي الله ، وعدوهم عدو الله ،
وطاعتهم طاعة الله ، ومعصيتهم معصية الله ، وأقول : إن المعراج حق ،
والمساءلة في القبر حق ، وإن الجنة حق ، وإن النار حق ، والصراط حق ،
والميزان حق ، وإن الساعة آتية لا ريب فيها ، وإن الله يبعث من في القبور ،
وأقول : إن الفرائض الواجبة بعد الولاية : الصلاة والزكاة والصوم والحج
والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فقال عليه السلام : يا أبا القاسم ، هذا والله دين الله الذي ارتضاه لعباده ، فاثبت
عليه ، ثبتك الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة «^(١).

موارد من التصحيح العقائدي :

١ — صفات الذات :

في خضمّ الجدل الدائر في صفات الذات الإلهية ، حرص أهل

(١) اكمال الدين : ٣٧٩ / ١ ، التوحيد : ٨١ / ٣٧ .

البيت ﷺ على تأكيد حقيقة أن الخالق لا يمكن أن يوصف بغير ما وصف به نفسه ، وأن البشر لا يتمكن من معرفة صفات الذات إلّا من خلاله سبحانه ، فهو الذي أحاط بذاته ولم يحط بذاته أحد سواه ، وإذا حاول أحد ذلك فقد يصفه من خلال ما يتوهمه فيقول ما لا يرضي الله ، الأمر الذي يعني إبطال كل المقولات التي كانت تموج بها الساحة الإسلامية من المشبهة والجسمة والمعطلة وغيرهم .

عن محمد بن حكيم ، قال : « كتب أبو الحسن موسى بن جعفر ﷺ إلى أبي : إن الله أعلى وأجل وأعظم من أن يبلغ كنه صفته ، فصفوه بما وصف به نفسه ، وكفوا عما سوى ذلك » ^(١) .

وعن الفتح بن يزيد الجرجاني ، قال : « ضمني وأبا الحسن الهادي ﷺ الطريق حين منصرفي من مكة إلى خراسان ، وهو صائر إلى العراق ، فسمعتة وهو يقول : ... إن الخالق لا يوصف إلّا بما وصف به نفسه ، وأن يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه ، والأوهام أن تناله ، والخطرات أن تحده ، والأبصار عن الاحاطة به ، جل عما يصفه الواصفون ، وتعالى عما ينعتة الناعتون ، نأى في قربه ، وقرب في نأيه ، فهو في نأيه قريب ، وفي قربه بعيد ، كيف الكيف فلا يقال كيف ، وآين الأين فلا يقال أين ، إذ هو منقطع الكيفية والأينية ، هو الواحد الأحد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فجل جلاله ... » ^(٢) .

(١) الكافي ١ : ١٠٢ / ٦ .

(٢) كشف الغمة ٣ : ١٧٩ .

كيف وصف أهل البيت عليهم السلام الذات الإلهية؟

على ضوء ما تقدم مارس آل البيت عليهم السلام التصحيح في هذا الاطار بكلمات منتزعة من ألفاظ الكتاب الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وآله ، محذرين من رواسب الشرك ومقولات أهل البدع والأوهام الباطلة المستندة إلى تقديرات العقول.

فمن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام وقد سأله ذعلب اليماني : « هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام : أفأعبد ما لا أرى؟ فقال : وكيف تراه؟ فقال : لا تراه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان . قريب من الأشياء غير ملامس ، بعيد منها غير مباين ، متكلم لا بروية ، مريد لا بجمّة ، صانع لا بجارحة ، لطيف لا يوصف بالخفاء ، كبير لا يوصف بالجفاء ، بصير لا يوصف بالحاسة ، رحيم لا يوصف بالرقّة ، تنو الوجوه لعظمته ، وتجب القلوب من مخافته » ^(١).

وعن محمد بن مسلم ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قلت : جعلت فداك ، يزعم قوم من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر ، ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال : فقال : كذبوا وأحدوا ، وشبهوا ، تعالى الله عن ذلك ، إنه سميع بصير ، يسمع بما يبصر ، ويبصر بما يسمع .

قال : قلت : يزعمون أنه بصير على ما يعقلونه . قال : فقال : تعالى الله ، إنما يعقل ما كان بصفة المخلوق ، وليس الله كذلك » ^(٢).

(١) نهج البلاغة : ٢٥٨ — الخطبة ١٧٩ .

(٢) الكافي ١ : ١٠٨ / ١ .

وعن أبي عبد الله عليه السلام وقد قال رجل عنده : الله أكبر ، فقال : الله أكبر من أي شيء ؟ فقال : من كل شيء . فقال أبو عبد الله عليه السلام : حدّته . فقال الرجل : كيف أقول ؟ قال : قل : الله أكبر من أن يُوصَفَ «^(١) .

وهنا يمارس الإمام عليه السلام عملية تصحيح للمقولة ، وما أكثر الناس الذين يقولون : الله أكبر من كل شيء ! فيجعلون لله تعالى حداً من حيث لا يشعرون ، من هنا جاء في الحديث الشريف : « الشرك أخفى من ديب النمل » .

وعن أبي الصلت المهروري ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، قال : يابن رسول الله ، إن قوماً يقولون : لم يزل عالماً بعلم ، وقادراً بقدره ، وحيّاً ب حياة ، وقديماً بقدم ، وسميعاً بسمع ، وبصيراً ببصر ؟ فقال عليه السلام : من قال ذلك ودان به ، فقد اتخذ مع الله آلهة أخرى ، وليس من ولايتنا على شيء . ثم قال عليه السلام : لم يزل الله عزّوجلّ عليماً ، قادراً ، حياً ، قديماً ، سميعاً ، بصيراً لذاته ، تعالى عما يقول المشركون والمشبهون علواً كبيراً «^(٢) .

٢ — تزيه الذات عن مقولات المشبهة والمعطلة :

يختلف الرأي في صفات الذات بين المتكلمين ، فمنهم من يثبت الصفات البشرية على الذات الإلهية ، كامتلاك الجارحة ، والتزول والانتقال من مكان إلى مكان ، والجلوس على العرش ، وهؤلاء هم المشبهة ، ومنهم من يذهب إلى تعطيل العقول عن المعرفة ، وهم المعطّلة ، وإزاء ذلك دعا

(١) الكافي ١ : ١١٧ / ٨ .

(٢) التوحيد : ١٣٩ / ٣ ، عيون أخبار الرضا ١ : ١١٩ / ١٠ ، الاحتجاج : ٤١٠ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٦٠

أهل البيت عليهم السلام إلى التحدث بلغة القرآن ، وأخذ العناوين الكبرى في العقيدة منه لا من غيره ، فنفوا التشبيه والتعطيل جميعاً ، وأكدوا أن الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثلته شيء ، خارج عن الحدين ؛ حد الابطال ، وحد التشبيه ، وإنه ليس بجسم لأنه خالق الأجسام ، ولا صورة لأنه خالق الصور ومبدعها ، ولا عرض ولا جوهر ، لأنه خالق الأعراض والجواهر ، وهو رب كل شيء ومالكة وجاعله ومحدثه. وفيما يلي نستعرض بعض الروايات الواردة عنهم عليهم السلام ، وهي تؤكد هذه المضامين ، وتشير إلى تصدي أهل البيت عليهم السلام إلى أمثال هذه المقولات الباطلة :

عن أبي حمزة الثمالي قال : « رأيت علي بن الحسين عليه السلام قاعداً واضعاً إحدى رجله على فخذه فقلت : إن الناس يكرهون هذه الجلسة ، ويقولون : إنها جلسة الرب ؟! فقال : إني إنما جلست هذه الجلسة للملافة ، والرب لا يملّ ، ولا تأخذه سنة ولا نوم » ^(١).

وعن عبدالرحيم القصير ، قال : « كتبتُ على يدي عبدالملك بن أعين إلى أبي عبدالله عليه السلام بمسائل فيها : أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يوصف بالصورة وبالتخطيط ، فإن رأيت — جعلني الله فداك — أن تكتب إليّ بالمذهب الصحيح من التوحيد ؟ فكتب عليه السلام بيدي عبدالملك بن أعين : سألت — رحمك الله — عن التوحيد ، وما ذهب إليه من قبلك ، فتعالى الله الذي ليس كمثلته شيء ، وهو السميع البصير ، تعالى الله عما يصفه الواصفون

(١) الكافي ٢ : ٦٦١ / ٢ .

الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد ٦١
المشبهون الله تبارك وتعالى بخلقه ، المفترون على الله ، واعلم — رحمك الله — أن
المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عز وجل ، فأنف
عن الله البطلان والتشبيه ، فلا نفى ولا تشبيه ، هو الله الثابت الموجود ، تعالى
الله عما يصفه الواصفون ، ولا تعدُّ القرآن فتضليل بعد البيان «^(١) .

فلقد أراد عليه السلام أن يقول للسائل أن لا يستغرق في الجدل الكلامي
عندما يتحدث عن الله سبحانه ، وطلب إليه أن يقرأ كتاب الله اذا أراد
معرفة خالقه ، وإلا فهو الضلال المبين.

وعن سهل بن زياد ، قال : « كتب إلى أبي محمد عليه السلام : قد اختلف
يا سيدي أصحابنا في التوحيد ، فمنهم من يقول هو جسم ، ومنهم من يقول
هو صورة ، فإن رأيت يا سيدي أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا
أجوزه ، فعلت متطولاً .

فوقع بخطه عليه السلام : سألت عن التوحيد ، وهذا منكم معزول ، الله واحد
أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، خالق وليس بمخلوق ، يخلق
تبارك وتعالى ما يشاء من الأجسام وغير ذلك وليس بجسم ، ويصور ما يشاء
وليس بصورة ، حل ثناؤه وتقدّست أسماؤه أن يكون له شبه ، هو لا غيره ،
ليس كمثل شيء وهو السميع البصير «^(٢) .

ولأجل تعميق هذه المبادئ في النفوس ، أمروا شيعتهم بمقاطعة

(١) التوحيد : ١٠٢ / ١٥ ، الكافي ١ : ١٠٠ / ١ .

(٢) الكافي ١ : ١٠٣ / ١٠ .

المجسمة ، وعدم الصلاة خلفهم ، وأن لا يعطوهم شيئاً من الزكاة ^(١) .

٣ - إبطال الرؤية :

يذهب أهل الحديث من العامة إلى إمكان رؤية الله تعالى في الآخرة ، ويرون أنّ الله تعالى يظهر للناس يوم القيامة كما يظهر البدر في ليلة تمامه ، واعتمدوا في ذلك على ظواهر جملة من الروايات والآيات ^(٢) . ولتصحيح هذا الاتجاه بين أئمة أهل البيت عليهم السلام استحالة رؤية الله تعالى ؛ لأنها تُفضي إلى القول بالتشبيه ، مفسّرين الروايات والآيات التي استدللّ بها أهل الحديث على القول بإمكانية الرؤية بمعانٍ مناسبة لفهم الآيات والروايات .

عن عاصم بن حميد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « ذاكرت أبا عبد الله عليه السلام فيما يروون من الرؤية فقال : الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليمألوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب » ^(٣) .

وعن أبي هاشم الجعفري ، قال : « قلت لأبي جعفر عليه السلام : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ

(١) راجع : أمالي المفيد : ١١٢ / ٣ ، من لا يحضره الفقيه / الصدوق : ١ : ٣٧٩ ، التوحيد / الصدوق : ١٠١ / ١١ .

(٢) راجع : الإبانة / الأشعري : ٢١ ، شرح التجريد / القوشجي : ٣٣٤ .

(٣) الكافي : ١ : ٩٨ / ٧ .

الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴿١﴾. فقال عليه السلام : يا أبا هاشم ، أوهام القلوب أدق من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند ، والبلدان التي لم تدخلها ، ولا تدركها ببصرك ، وأوهام القلوب لا تدركه ، فكيف أبصار العيون؟! «^(٢).

وعن أحمد بن إسحاق ، قال : « كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ؟ فكتب : لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر ، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية ، وكان في ذلك الاشتباه ، لأن الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان في ذلك التشبيه ، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسيبات »^(٣).

وعن يعقوب بن إسحاق ، قال : « كتبت إلى أبي محمد عليه السلام أسأله : كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه ؟ فوقع عليه السلام : يا أبا يوسف ، جل سيدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يُرى.

قال : وسألته : هل رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ربه ؟ فوقع عليه السلام : إن الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ »^(٤).

(١) سورة الأنعام : ٦ / ١٠٣ .

(٢) الكافي ١ : ٩٩ / ١١ .

(٣) التوحيد : ٧ / ١٠٩ ، أصول الكافي ١ : ٩٧ / ٤ .

(٤) أصول الكافي ١ : ٩٥ / ١ ، التوحيد : ١٠٨ / ٢ .

٤ — علمه تعالى :

من المسائل التي كثر الجدل عنها فيما يتعلق بعلمه سبحانه ، هي مسألة علمه بالأشياء قبل خلقها أو بعد ذلك ، وهل يجوز ظهور الأمر له تعالى بعد أن كان خافياً عليه ، وقد أجاب أهل البيت عليهم السلام بأن الله تعالى عالم بمصير الأشياء كلها غابرها وحاضرها ومستقبلها ، وعلمه هذا أزلي قديم لا يتصور فيه الظهور بعد الخفاء ، ولا العلم بعد الجهل ، ومن ذلك ما رواه جعفر بن محمد بن حمزة ، قال : « كتبت إلى الرجل عليه السلام أسأله : أن مواليك اختلفوا في العلم ، فقال بعضهم : لم يزل الله عالماً قبل فعل الأشياء ، وقال بعضهم : لا نقول : لم يزل الله عالماً ؛ لأن معنى يعلم يفعل ، فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً ، فإن رأيت — جعلني الله فداك — أن تتعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه ؟ فكتب عليه السلام بخطه : لم يزل الله عالماً تبارك وتعالى ذكره » ^(١).

وعن أيوب بن نوح : « أنه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزوجل ، أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكونها ، أو لم يعلم ذلك حتى خلقها وأراد خلقها وتكوينها ، فعلم ما خلق عندما خلق ، وما كوّن عندما كوّن ؟ فوقع بخطه : لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء ، كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء » ^(٢).

(١) الكافي ١ : ١٠٧ / ٥ .

(٢) الكافي ١ : ١٠٧ / ٣ ، التوحيد : ١٤٥ / ١٣ .

ومن موارد التصحيح في هذا الاتجاه ما رواه الكاهلي ، قال : « كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام في دعاء : الحمد لله منتهى علمه . فكتب إلي : لا تقولن منتهى علمه ، ولكن قل منتهى رضاه » ^(١) . فعلم الله ليس له نهاية ولا تحده حدود .

البداء :

مما تقدم تبين أن علمه تعالى محيط بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض ، وهو سبحانه عالم بمصير الأشياء كلها غابرها وحاضرها ومستقبلها ، وعالم بالجزئيات كعلمه بالكيلات ، وعلمه بالمعدوم كعلمه بالموجود ، وعلمه هذا أزلي قديم لا يتصور فيه الظهور بعد الخفاء ولا العلم بعد الجهل ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) .

وعلى هذا الأساس نفى أئمة أهل البيت عليهم السلام البداء بمعنى ظهور الشيء بعد خفائه ، لما يترتب عليه من نسبة الجهل إلى الله ، وهو عين الكفر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

روى ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « إنَّ الله يقدم ما يشاء ، ويؤخر ما يشاء ، ويمحو ما يشاء ، ويثبت ما يشاء ، وعنده أم الكتاب . وقال عليه السلام : لكل أمر يريد الله فهو في علمه قبل أن يصنعه ، وليس شيء يبدو له إلَّا وقد كان في

(١) الكافي ١ : ١٠٧ / ٤ ، التوحيد : ١٣٤ .

(٢) سورة آل عمران : ٣ / ٥ .

علمه ، إن الله لا يبدو له من جهل» ^(١).

وقال عليه السلام : «من زعم أن الله عزّ وجلّ يبدو له في شيء لم يعلمه أمس ، فأبرءوا منه» ^(٢).

فمعنى البداء الوارد عنهم عليهم السلام هو ظهور أمر لنا منه تعالى لم يكن مرتقبا ، يعد مساوقا لتغيير القضاء ، وهو يتعلق بالتكوينيّات ، كالنسخ المتعلق بالتشريعات ، ويكون في القضاء الموقوف المعبر عنه بلوح المحو والإثبات.

عن الفضيل ، قال : « سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : من الأمور أمور محتومة كائنة لا محالة ، ومن الأمور أمور موقوفة عند الله ، يقدم فيها ما يشاء ويمحو ما يشاء ويثبت منها ما يشاء ، لم يطلع على ذلك أحداً — يعني الموقوفة — فأما ما جاءت به الرسل ، فهي كائنة ، لا يكذب نفسه ولا نبيه ولا ملائكته» ^(٣).

فالقول يجواز البداء في الأمر الموقوف لا يستلزم نسبة الجهل إلى الله سبحانه ، لأنه تعالى في عالم التكوين يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، ويثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء ، لقوله تعالى : ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِدَّةَ أُمِّ الْكِتَابِ﴾ ^(٤) ، وقوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢١٨ / ٧١

(٢) بحار الأنوار ٤ : ١١١ / ٣٠.

(٣) تفسير العياشي ٢ : ٢١٧ / ٦٥.

(٤) سورة الرعد : ١٣ / ٣٩.

شأن ﴿^(١)﴾ وأحاديثهم عليه السلام جاءت بهذا المنطق الإلهي ، ولا يخالفه إلّا منطق اليهود المعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ^(٢).

قال اليهود : إن الله لما خلق الأشياء وقدر التقادير ، تم الأمر وخرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء ، فلا نسخ ولا استجابة لدعاء ، لأن الأمر مفروغ منه ^(٣).

وما يهمننا في هذا الصدد هو التصحيح الذي قدمه أهل البيت عليهم السلام على طريق البداء ، ومن أبرز الشواهد عليه مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي متكلم خراسان ، وكان المروزي ينكر البداء بالمعنى الذي قدمناه ، قال عليه السلام : « وما أنكرت من البداء يا سليمان ، والله عز وجل يقول : ﴿ أَوْلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ ^(٤) ، ويقول عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ^(٥) ، ويقول : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٦) ، ويقول عز وجل : ﴿ نَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ ^(٧) ، ويقول : ﴿ بَدَأَ

(١) سورة الرحمن : ٥٥ / ٢٩ .

(٢) سورة المائدة : ٥ / ٦٤ .

(٣) تفسير الميزان : ٢ / ٣٢ .

(٤) سورة مريم : ١٩ / ٦٧ .

(٥) سورة الروم : ٣٠ / ٢٧ .

(٦) سورة البقرة : ٢ / ١١٧ .

(٧) سورة فاطر : ٣٥ / ١ .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ﴿١﴾ ، ويقول عزوجل : ﴿ وَآخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿٢﴾ ، ويقول عزوجل : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ ﴿٣﴾ !؟

قال سليمان : هل رويت فيه شيئاً عن آبائك ؟ قال عليه السلام : نعم ، رويت عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : إن لله عزوجل علمين : علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلا هو ، ومن ذلك يكون البداء ، وعلماً علّمه ملائكته ورسله ، فالعلماء من أهل بيت نبيه يعلمونه .

قال سليمان : أحب أن تترعه لي من كتاب الله عزوجل . قال عليه السلام : قول الله عزوجل لنبيه صلى الله عليه وآله : ﴿ قَتَلْنَا عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ ﴿٤﴾ أراد هلاكهم ثم بدا لله ، أي عن علم ، فقال : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥﴾ .

قال سليمان : زدني جعلت فداك — فواصل الإمام عليه السلام في إيراد الأدلة على جواز البداء حتى أذعن سليمان المروزي — فقال للمأمون : يا أمير المؤمنين ، لا أنكرُ بعد يومي هذا البداء ولا أكذبُ به إن شاء الله « ﴿٦﴾ .

(١) سورة السجدة : ٣٢ / ٧ .

(٢) سورة التوبة : ٩ / ١٠٦ .

(٣) سورة فاطر : ٣٥ / ١١ .

(٤) سورة الذاريات : ٥١ / ٥٤ .

(٥) سورة الذاريات : ٥١ / ٥٥ .

(٦) التوحيد : ٤٤١ — ٤٤٥ / ١ .

٥ - الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين :

الجبر هو الاعتقاد بنسبة أفعال العباد إلى الله تعالى ، ويقول المخبرة : ليس لنا صنع ، أي لسنا مخيرين في أفعالنا التي نفعلها ، بل إننا مجبورون بإرادته ومشيئته تعالى ، وإنما تنسب الأفعال إلينا على سبيل التجوُّز ، لأننا محالُّها ، وهذا يفضي إلى القول بأنه تعالى يحاسبهم على أفعال أجبرهم عليها ، ومن هنا نسبوا الظلم إلى الخالق ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، ويتبنى هذا الرأي الأشاعرة ، غير أنهم أضافوا (الكسب) إلى الإنسان ، لذا عُرفوا بالجبرية المتوسطة. والمفوضة يعتقدون أن الله سبحانه لا صنع له ولا دخل في أفعال العباد ، سوى أنه خلقهم وأقدرهم ، ثم فوض أمر أفعالهم إلى سلطانهم وإرادتهم ، ولا دخل لأي إرادة أو سلطان عليهم ، فأخرجوا الله تعالى عن سلطانه ، وأشركوا معه غيره في الخلق ، ويتبنى هذا الرأي المعتزلة. ويذهب أهل البيت عليهم السلام مذهباً وسطاً بين الجبر والتفويض لا يتصل بالجبر ولا بالتفويض ، وهو الأمر بين الأمرين ، أو المتزلة بين منزلتين ، فأفعالنا هي تحت مقدورنا واختيارنا ، وهي مقدرة لله تعالى.

عن المفضل بن عمر ، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام ، قال : « لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين. قال : قلت : وما أمر بين أمرين ؟ قال : مثل ذلك مثل رجل رأته على معصية فنهيته فلم ينته ، فتركته ففعل تلك المعصية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته ، أنت الذي أمرته بالمعصية » ^(١).

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٧٠
وعن الباقر والصادق عليهما السلام قالوا : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ أَنْ يُجِيرَ خَلْقَهُ عَلَى الذَّنُوبِ ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَرِيدَ أَمْرًا فَلَا يَكُونُ » ^(١).

وروي عن الإمام الرضا عليه السلام لأصحابه كلاماً جامعاً في هذا الخصوص ، قال عليه السلام : « أَلَا أُعْطِيكُمْ فِي هَذِهِ أَصْلًا لَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلَا يَخَاصِمُكُمْ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا كَسَرْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ. فَقَالَ عليه السلام : إِنْ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَطْعَ بِإِكْرَاهٍ ، وَلَمْ يَعِصْ بِغَلْبَةٍ ، وَلَمْ يَهْمَلِ الْعِبَادَ فِي مَلِكِهِ ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِمَا مَلَكَهُمْ ، وَالْقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنْ ائْتَمَرَ الْعِبَادَ بِالطَّاعَةِ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ عَنْهَا صَادِقًا ، وَلَا مِنْهَا مَانِعًا ، وَإِنْ ائْتَمَرُوا بِمَعْصِيَةِ فَشَاءَ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ فَعَلْ ، فَإِنْ لَمْ يَجَلْ وَفَعَلُوهُ فَلَيْسَ هُوَ الَّذِي أَدْخَلَهُمْ فِيهَا — ثُمَّ قَالَ عليه السلام : — مَنْ يَضْبُطُ حُدُودَ هَذَا الْكَلَامِ فَقَدْ خَصِمَ مِنْ خَالَفَهُ » ^(٢).

وروي عن أبي الحسن الثالث عليه السلام أنه سئل عن أفعال العباد ، فقيّل له : « هل هي مخلوقة لله تعالى ؟ فقال عليه السلام : لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها ، وقد قال سبحانه : ﴿ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ ^(٣) ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم ، وإنما تبرأ من شركهم وقيّاتهم » ^(٤).

وللإمام أبي الحسن الهادي عليه السلام رسالة بعثها إلى أهل الأهواز ، هي

(١) التّوحيد : ٣٦٠ / ٣.

(٢) كشف الغمة : ٣ : ٨٢.

(٣) سورة التوبة : ٩ / ٣.

(٤) تصحيح الاعتقاد : ٢٩.

الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد ٧١

أطول وأهم ما ورد في هذا الموضوع ، باعتباره من المسائل التي أثيرت بقوة في ذلك الوقت ، بحيث كانت سبباً للاختلاف بين أصحابه عليه السلام إلى حدّ الفرقة والتقاطع والعداوة ، فوضع الإمام عليه السلام النقاط على الحروف في هذه المسألة الحساسة ، مستدلاً على المتزلة بين المتزلتين من أي الكتاب الكريم والحديث الشريف ^(١).

٦ — الهداية والضلالة والسعادة والشقاوة :

على ضوء ما تقدم من نسبة الأفعال اختلفت الفرق في تحديد جهة صدور الهداية والضلال ، والطاعة والمعصية ، والسعادة والشقاوة ، فذهب بعض المفسرين والمحدثين إلى أنّ الله تعالى هو مصدر ذلك كله ، والعبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، فإذا أراد الله هداه ، وإذا أراد أضله ، وذهب آخرون إلى العكس من هذا التصور ، فتصدّى أهل البيت عليهم السلام لهذين الاتجاهين مبينين أنّ كلّ هداية هي من الله تعالى ، وكلّ ضلالة هي من العبد نفسه ، وأن كليهما يجريان على الإنسان باختياره وقراره.

عن جابر بن يزيد الجعفي ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : « سألته عن معنى لا حول ولا قوّة إلّا بالله. فقال : معناه لا حول لنا عن معصية الله إلّا بعون الله ، ولا قوّة لنا على طاعة الله إلّا بتوفيق الله عزّ وجلّ » ^(٢).

وعن عبد الله بن الفضل الهاشمي قال : « سألت أبا عبد الله جعفر بن

(١) تحف العقول / الحراني : ٤٥٨.

(٢) التّوحيد : ٢٤٢ / ٣ ، الاحتجاج : ٤١٢.

محمد عليه السلام عن قول الله عزّوجلّ: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾^(١). فقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى يُضِلُّ الظالمين يوم القيامة عن دار كرامته، ويهدي أهل الإيمان والعمل الصالح إلى جنّته، كما قال عزّوجلّ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢)، وقال عزّوجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾^(٣).

وعن حمدان بن سليمان النيسابوري، «قال: سألت عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بنيسابور عن قول الله عزّوجلّ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾^(٤). قال: من يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا إلى جنّته ودار كرامته في الآخرة يشرح صدره للتسليم لله، والثقة به، والسكون إلى ما وعده من ثوابه حتّى يطمئن إليه، ومن يرد أن يضلّه عن جنّته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا، يجعل صدره ضيقاً حرجاً حتّى يشكّ في كفره، ويضطرب من اعتقاده قلبه، حتّى يصير كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون»^(٥).

٧ — تزيه الأنبياء عن المعاصي :

ذهب أهل البيت عليهم السلام إلى القول بعصمة الأنبياء عليهم السلام جميعاً من

(١) سورة الكهف: ١٨ / ١٧.

(٢) سورة إبراهيم: ١٤ / ٢٧.

(٣) التّوحيد: ٢٤١ / ١. والآية من سورة يونس: ١٠ / ٩.

(٤) سورة الأنعام: ٦ / ١٢٥.

(٥) التّوحيد: ٢٤٢ / ٤.

المعاصي كبيرها وصغيرها قبل النبوة وبعدها ، وذهب الحشوية والأشاعرة إلى جواز فعل الكبائر قبل النبوة ، ومنهم من ذهب إلى جوازها في حال النبوة سوى الكفر والكذب فيما يتعلق بتبليغ الشريعة ، ويستدلون على ذلك بظواهر بعض الآيات القرآنية ، وجوز المعتزلة صغائر الذنوب على الأنبياء.

وقدم أئمة أهل البيت عليهم السلام بياناً شافياً لجميع الآيات التي يظهر منها نسبة الخطأ أو المعصية للأنبياء عليهم السلام ، وأمطوا الستار عن المعاني الحقيقية لتلك الآيات.

ومن ذلك ما رواه الحسن الصيقل ، قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إنا

قد

روينا عن أبي جعفر عليه السلام في قول يوسف عليه السلام : ﴿ أَيُّهَا الْعَبْرِيُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ ^(١) ، فقال : والله ما سرقوا وما كذب ، وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ^(٢) ، فقال : والله ما فعلوا وما كذب.

قال : فقال أبو عبد الله عليه السلام : ما عندكم فيها يا صيقل ؟ قال : فقلت : ما عندنا فيها إلا التسليم ، قال : فقال : إن الله أحبّ اثنين ، وأبغض اثنين : أحبّ الخطر فيما بين الصّفين ، وأحبّ الكذب في الاصلاح ، وأبغض الخطر في الطرقات ، وأبغض الكذب في غير الاصلاح ، إن إبراهيم عليه السلام إنما قال : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ إرادة الاصلاح ودلالة على أنهم لا يفعلون ، وقال

(١) سورة يوسف : ١٢ / ٧٠.

(٢) سورة الأنبياء : ٢١ / ٦٣.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٧٤
يوسف عليه السلام إرادة الإصلاح «^(١)» .

وفي حديث آخر عنه عليه السلام ، قال : « ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم عليه السلام ،
فقلت : فكيف ذاك ؟ قال : إنما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾
إن نطقوا فكبيرهم فعل ، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً ، فما نطقوا وما
كذب إبراهيم عليه السلام .

فقلت : قوله عز وجلّ في يوسف عليه السلام : ﴿ آيَتَهَا الْعِزُّ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾
قال : إنهم سرقوا يوسف من أبيه ، ألا ترى أنه قال لهم حين قال : ﴿ مَاذَا
تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ ﴾^(٢) ، ولم يقل : سرقتم صواع الملك ؟ إنما
عنى سرقتم يوسف من أبيه «^(٣)» .

وهذا الحديث وغيره^(٤) يستبطن ردّاً على ما روي من طرق العامة
بما لا يتناسب مع شخصية الأنبياء عليهم السلام ، عن أبي هريرة قال : « قال رسول
الله صلى الله عليه وآله : لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : قوله حين دعى إلى آلهتهم إني
سقيم ، وقوله : فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : إنما أختي... »^(٥) .

وقد حكم الفخر الرازي في التفسير الكبير بكذب حديث البخاري

(١) الكافي ٢ : ٣٤١ / ١٧ .

(٢) سورة يوسف : ١٢ / ٧١ - ٧٢ .

(٣) معاني الأخبار : ٢١٠ / ١ .

(٤) راجع : الكافي ٨ : ١٠٠ / ٧٠ ، مجمع البيان ٨ : ٧٠٢ .

(٥) راجع : صحيح البخاري ٤ : ٢٨٠ / ١٦١ ، صحيح مسلم ٤ : ١٨٤٠ / ١٥٤ ،

مسند أحمد ٢ : ٤٠٣ .

عن أبي هريرة ، فقال ما هذا لفظه :

« قلت لبعضهم : هذا الحديث لا ينبغي أن يقبل ؛ لأن نسبة الكذب إلى إبراهيم عليه السلام لا تجوز ، وقال ذلك الرجل : فكيف يحكم بكذب الرواة العدول ؟ فقلت : لما وقع التعارض بين نسبة الكذب إلى الراوي وبين نسبته إلى الخليل عليه السلام ، كان من المعلوم بالضرورة أن نسبته إلى الراوي أولى » ^(١).

وللامام علي بن موسى الرضا عليه السلام حديث طويل رواه علي بن محمد ابن الجهم ، وأجاب فيه الإمام عليه السلام عن كثير من الآيات التي توهم ما يعارض العصمة ، قال علي بن محمد بن الجهم : « حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى عليه السلام ، فقال له المأمون : يا بن رسول الله ، أليس من قولك إن الأنبياء معصومون ؟ فقال : بلى ، وذكر حديثاً طويلاً ، ومنه : قال المأمون : فأخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ؟ ^(٢).

فقال الرضا عليه السلام : لقد همت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمم بها كما همت به ، لكنه كان معصوماً ، والمعصوم لا يهتم بذنب ولا يأتيه . ولقد حدثني أبي ، عن أبيه الصادق عليه السلام ، أنه قال : همت بأن تفعل ، وهمم بأن لا يفعل . فقال المأمون : لله درك ، يا أبا الحسن » ^(٣).

(١) التفسير الكبير / الفخر الرازي ١٦ : ١٤٨ .

(٢) سورة يوسف : ١٢ / ٢٤ .

(٣) عيون أخبار الرضا ١ : ٢٠١ / ١ .

٨ - التصديّ لحركة الغلو والنصب :

الغلوّ: مجاوزة الحدّ المعقول في العقائد الدينية والواجبات الشرعية. والغالي في أهل البيت عليهم السلام من يقول فيهم عليهم السلام ما لا يقولون في أنفسهم ، كالقول بألوهية النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ، وبكونهم شركاء لله سبحانه في الربوبية ، وأن الله تعالى حلّ فيهم أو اتحد بهم ، وأنهم يعلمون الغيب ، والقول بأن معرفتهم تغني عن جميع الطاعات والعبادات ، والقول بأن الله فوّض إليهم أمر العباد بالتفويض المطلق ، والقول بأن الأئمة عليهم السلام أنبياء ، والقول بتناسخ أرواح بعضهم إلى بعض ، والقول بأنهم لم يُقتلوا ولم يموتوا بل شبّه لهم ، والقول بتفضيل الأئمة عليهم السلام على النبي صلى الله عليه وآله في مكارم الأخلاق ، إلى غير ذلك من العقائد الفاسدة التي رفضها الأئمة عليهم السلام وشيعتهم الإمامية جملة وتفصيلاً ، وذهب بعض الغلاة إلى ادعاء البايّة أو الإمامة أو النبوة.

وفرق الغلاة كثيرة ، منهم : العليّانية والمخمسة والغرابية والزيغية والبيانية والخطابية والشعرية والمغيرية والمنصورية ، وغيرهم من فرق الضلال المنقرضة ، التي نشأت لأسباب عديدة ، منها سياسية تهدف إلى طلب الرئاسة والزعامة ، أو الخطّ من مكانة الأشخاص الذين يغالون فيهم والتقليل من شأنهم ، ومنها المصالح الشخصية الهادفة إلى احتواء أموال الناس وأكلها بالباطل ، ومنها التزوات الشاذة التي جعلت أصحابها يتمردون على شرعة الله سبحانه ، فأباحوا المحرمات واستخفوا

بالعبادات ، ومهما كان السبب فان حركة الغلو من المعاول الهدامة التي تشكل خطورة بالغة على الفكر الإسلامي ، وهي ظاهرة طارئة نشأت بدعم موجّه من قبل أعداء الإسلام الذين ما انفكوا يتربصون به الدوائر ، ليسلبوا مبادئه من نفوس أبنائه ، ويشوّهوا مفاهيمه ومعتقداته .

لذلك اتخذ الأئمة الأطهار عليهم السلام وشيعتهم مواقف شديدة من الغلو والغلاة ، لقطع الطريق أمام هذا المدّ الفكري الهدّام ، وسد جميع المنافذ أمام الغلاة ، ومحاربتهم بكلّ ما بوسعهم من عناصر القوة والامكان ، للحيلولة دون انتشار أفكارهم الهدامة ، فبينوا أن الغلو كفر وشرك وخروج عن الإسلام ، وتبرّءوا من الغلاة ولعنوهم ، وحدّروا شيعتهم منهم ، وكشفوا عن تمويهاتهم وافتراءاتهم ، وردّوا على أباطيلهم ، لتصحيح المسار الإسلامي بكل ما حوى من علوم ومعارف واتجاهات ، والحفاظ على الخط الرسالي الأصيل .

قال أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة : « إياكم والغلو فينا ، قولوا : عبيد مربوبون ، وقولوا في فضلنا ما شئتم ، من أحبنا فليعمل بعملنا ، وليستعن بالورع » ^(١) .
وقال الإمام الصادق عليه السلام : « لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا ، لعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا ، وإليه مآبنا ومعادنا ، وبيده نواصينا » ^(٢) .

(١) الخصال : ٦١٤ / ١٠ .

(٢) رجال الكشي : ٣٠٢ / ٥٤٢ .

وقال الإمام الرضا عليه السلام وقد سئل عن الغلاة : « .. من جالسهم أو خالطهم ، أو آكلهم أو شاربهم ، أو واصلهم ، أو زوجهم أو تزوج منهم ، أو آمنهم أو اتتمنهم على أمانة ، أو صدق حديثهم ، أو أعانهم بشطر كلمة ، خرج من ولاية الله عزوجل وولاية رسول الله صلى الله عليه وآله وولايتنا أهل البيت » ^(١).

وإلى جانب الغلو في النبي والأئمة عليهم السلام فإن هناك خطأ مناقضاً لخطأ الغلو ، وهو خطأ النصب والعدوان لأهل البيت عليهم السلام ، والانتقاص من مكاتبتهم الحقّة عند الله تعالى ، ودورهم في تبليغ الرسالة والحفاظ عليها ، والبعض من الناصبة قد يصل إلى حدّ التكفير لكلّ من يتولى أهل البيت عليهم السلام ويقول بامامتهم ، ويدين بحبّهم ، ويقتدي بهم كقادة رساليين انتجبهم الله تعالى لتبليغ دينه وإتمام رسالته.

وقد بين أهل البيت عليهم السلام أن كلاً من الغلو والنصب هو من نتاج أعدائهم ، وأن الغالي والناصر هالكان ، وأن أفضل المواقف هو الموقف الوسط بين الافراط والتفريط.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « سيهلك فيّ صنفان : محبّ مفرط يذهب به الحبّ إلى غير الحقّ ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحقّ ، وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط فالزموه » ^(٢).

وقال الإمام الرضا عليه السلام : « نحن آل محمد النمط الأوسط الذي لا يدركنا

(١) عيون أخبار الرضا ٢ : ٢١٩ / ٤ .

(٢) نهج البلاغة : ١٨٤ — الخطبة ١٢٧ .

٩ - التصدي لأهل البدع والشبهات :

هناك الكثير من الأخبار التي تدلّ على أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يتابعون بدقة ما يجري على الساحة الفكرية ، ويتحركون على كل الاتجاهات المضادة والأفكار المنحرفة والشبهات التي تنطلق هنا وهناك في مواجهة الفكر الإسلامي الأصيل ، فيتصدّون لها بالحجة البالغة والاسلوب العلمي والجدل الموضوعي.

مثال ذلك ما نقله ابن شهر آشوب عن أبي القاسم الكوفي في كتاب التبديل : أن الكندي ، كان فيلسوف العراق في زمانه ، أخذ في تأليف تناقض القرآن ، وشغل نفسه بذلك ، وتفرد به في منزله ، فسلب الإمام العسكري عليه السلام عليه أحد طلابه بكلام قاله له ، مما جعله يتوب ويحرق أوراقه.

وملخص الفكرة التي أبدتها الإمام عليه السلام للتلميذ ، هي احتمال أن يكون المراد بالآيات القرآنية غير المعاني التي فهمها وذهب إليها ، باعتبار أن اللغة العربية مرنة متحركة ، فقد يفهم بعض الناس الكلام على أنه الحقيقة وهو من المجاز ، وقد يفهم أن المراد هو المعنى اللغوي والمقصود هو المعنى الكنائي.

وطلب الإمام عليه السلام من تلميذ الكندي أن يتلطف في مؤانسة استاذة

(١) الكافي ١ : ١٠١ / ٣.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٨٠
قبل إلقاء الاحتمال ، ووصفه عليه السلام بقوله : إنه رجل يفهم إذا سمع. فصار
التلميذ إلى الكندي ، وألقى إليه ذلك الاحتمال ، فتفكر في نفسه ، ورأى أن
ذلك محتمل في اللغة ، وسائغ في النظر.

فقال : أقسمت عليك إلا أخبرني من أين لك هذا؟ فقال : إنه شيء
عرض بقلبي فأوردته عليك. فقال : كلا ، ما مثلك من اهتدى إلى هذا ، ولا
من بلغ هذه المتزلة ، فعرفني من أين لك هذا؟ فقال : أمري به أبو محمد.
فقال : الآن جئت به ، وما كان ليخرج مثل هذا إلا من ذلك البيت. ثم إنّه
دعا بالنار وأحرق جميع ما كان ألفه ^(١).

ومن المفاهيم المغلوطة التي أسهم أهل البيت عليهم السلام في فضحها
وتعريفها ، وتوجيهها في المسار الصحيح ، هو سلوك المتصوفة في الزهد
واظهار التقشف والانقطاع عن الحياة.

قال العلاء بن زياد الحارثي لأمير المؤمنين عليه السلام : « يا أمير المؤمنين ،
أشكو إليك أخي عاصم بن زياد ، قال : وماله ؟ قال : لبس العباءة وتخلّى
عن الدنيا. قال : عليّ به. فلما جاء قال : يا عديّ نفسه ، لقد استهام بك
الخيث ، أما رحمت أهلك وولدك. أتري الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن
تأخذها؟! أنت أهون على الله من ذلك » ^(٢).

ودخل على علي بن موسى الرضا قوم من الصوفية فقالوا :

(١) المناقب / ابن شهر آشوب ٤ : ٤٥٧.

(٢) نهج البلاغة : ٣٢٤ — الخطبة ٢٠٩.

« ... الإمامة تحتاج إلى من يأكل الخشن ويلبس الخشن ويركب ويعود المريض ويشيع الجنائز ، فقال عليه السلام : كان يوسف بن يعقوب نبياً فلبس أقبية الديداج المزركشة بالذهب ، والقباطي المنسوجة بالذهب ، وجلس على متكآت آل فرعون ، وحكم وأمر ونهى ، وإنما يراد من الإمام قسط وعدل ، إذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وإذا وعد أنجز ، إن الله لم يحرّم ملبوساً ولا مطعوماً ، وتلا قوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ^(١) .

ونهى الإمام الهادي عليه السلام أصحابه وسائر المسلمين عن التواصل مع الصوفية والاختلاط بهم ، لأن زهدهم لم يكن حقيقياً وإنما لراحة أبدانهم ، وأن تهجدهم في الليل لم يكن نسكاً وإخلاصاً في طاعة الله تعالى ، وإنما هو وسيلة لصيد أموال الناس وإغوائهم ، وأن أورادهم ليست عبادة خالصة لله بل هي رقص وغناء ، وأن أتباعهم هم الحمقى والسفهاء ^(٢) .

واستفحلت حركة الزندقة في العصر العباسي ، وتعددت مقولاتهم ، فمنهم من يقول بالتناسخ وقدم الدهر ، ومنهم من يقول بالثنوية ، وإذا كان الحاكم قد أفرط في استعمال القوة ضد هذا التيار المدمر ، فإن أهل البيت عليهم السلام قد أمعنوا النظر في اتباع المنطق العقلي معهم واستعمال لغة

(١) الفصول المهمة : ٢٥١ ، والآية من سورة الأعراف : ٧ / ٣٢ .

(٢) راجع : حديقة الشيعة / الأردبيلي : ٦٠٣ ، الاثنا عشرية / الحر العاملي : ٢٩ .

الحوار ، واطلاعتهم على مساحات واسعة من اضاءات الفكر الإسلامي.

فقد جاء في سيرة الإمام الرضا عليه السلام أنه دخل رجل من الزنادقة عليه وعنده جماعة ، فقال له أبو الحسن عليه السلام : «أرأيت إن كان القول قولكم ، وليس هو كما تقولون ، ألسنا وإياكم شرع سواء ، ولا يضرنا ما صلينا وزكينا وأقررنا ؟ فسكت ، فقال أبو الحسن عليه السلام : وإن يكن القول قولنا ، وهو قولنا ، وكما نقول ، ألستم قد هلكتم ونجونا ؟

قال : رحمك الله فأوجدني كيف هو ؟ وأين هو ؟ قال عليه السلام : ويلك ، إن الذي ذهبت إليه غلط ، وهو آين الآين ولا آين ، وككيف الكيف وكان ولا كيف ، فلا يعرف بكيفية ، ولا بأينونية ، ولا يدرك بحاسة ولا يُقاس بشيء.

قال الرجل : فإذاً انه لا شيء إذا لم يدرك بحاسة من الحواس !

فقال أبو الحسن عليه السلام : ويلك إذا عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته ، ونحن إذا عجزت حواسنا عن ادراكه أيقنا انه ربنا ، وأنه شيء بخلاف الأشياء.

قال الرجل : فأخبرني متى كان ؟! قال أبو الحسن عليه السلام : أخبرني متى لم يكن ، فأخبرك متى كان ؟!

قال الرجل : فما الدليل عليه ؟ قال أبو الحسن عليه السلام : اني لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفعت المكاره عنه وجرّ المنفعة اليه ، علمت أن لهذا البنيان بانياً ، فأقررت به ، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته ، وإنشاء السحاب ، وتصريف الرياح ، ومجرى الشمس

الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد ٨٣
والقمر والنجوم ، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات ، علمت أن لهذا مقدرًا ومنشأً.

قال الرجل : فلم احتجب ؟ فقال أبو الحسن عليه السلام : إنَّ الحجاب على الخلق ، لكثرة ذنوبهم ، فأما هو فلا يخفى عليه خافية في آناء الليل والنهار.

قال : فلم لا تدركه حاسة الأبصار ؟ قال عليه السلام : للفرق بينه وبين خلقه الذين تدركهم حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم ، ثم هو أجلّ من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل.

قال : فحدّه لي ؟ قال عليه السلام : لا حدّ له ، قال : ولم ؟ قال عليه السلام : لأن كل محدود متناه إلى حدّ ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة ، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان ، فهو غير محدود ولا متزايد ولا متناقص ولا متجزئ ولا متوهم .. « ^(١).

١٠ — تصحيح مفاهيم في الإمامة :

لقد بيّن أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمامة منصب الهي ، ولا تكون بالشورى والاختيار ، بل تخضع لإرادة الربانية ، وهو تعالى يجتبي من عباده ما يشاء لهذا المنصب الخطير ، والإمام يشترك مع النبي باعتبارهما حجة على الناس ، ويفترق عنه بالوحي فهو لا يوحي إليه ، وأن الأرض لا تخلو من حجة منذ خلق الله تعالى آدم ، وأن الأئمة من آل البيت هم ورثة النبي صلى الله عليه وآله وأولاده وأفضل من خلف بعده في أمته ، وأنهم أولي الأمر الذين

(١) عيون أخبار الرضا ١ : ١٢٠ / ٢٨.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٨٤

فرض الله طاعتهم على خلقه باعتبارهم قادة الرسالة المعصومين ، وأن ولاء جميع الخلائق يجب أن يكون لهم ، وأن لهم حقوقاً جعلها الله لهم واجبة في أعناق من يدينون لهم بالولاء منها الولاية والخمس والمودة والطاعة والصلاة عليهم ، وأن منهم القائم الذي يطهر الأرض من أعداء الله ، وله غيبة يطول أمدها ، يرتدّ فيها أقوام ويثبت فيها آخرون ، حتى يظهر ويملاً الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وقد تصدّى الأئمة عليهم السلام لبيان هذا الأصل العقائدي ، ودافعوا عن الأسس التي تقوم عليها الإمامة وعن أهم قواعدها ، مصرّحين بحقّهم بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله ، وتمالئ الأمة على استلاب هذا الحقّ منهم ، وذلك في نصوص واحتجاجات عديدة يصعب حصرها ، ولذا اقتصرنا على بعض ما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو على ثلاثة أقسام :

الأول : بيان حقهم عليهم السلام في الخلافة :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يقاس بأل محمد صلى الله عليه وآله من هذه الأمة أحدٌ ، ولا يسوّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفتى الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حقّ الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة ، الآن إذ رجع الحقّ إلى أهله ، ونقل إلى منتقله » ^(١).

وقال عليه السلام : « انظروا أهل بيت نبيكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى. فإن لبدوا فالبدوا ، وإن

(١) نهج البلاغة : ٤٧ — الخطبة ٢.

نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فتضلّوا ، ولا تتأخّروا عنهم فتهلكوا »^(١).

وقال عليه السلام : « أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغيّاً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرّمهم ، وأدخلنا وأخرجهم . بنا يستعطي الهدى ، ويستجلى العمى . إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاة من غيرهم »^(٢).

وقام أمير المؤمنين عليه السلام في أيام خلافته ، فناشد الناس بالرحمة قائلاً : « أنشد الله من سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدیر خمّ : من كنت مولاه فعلي مولاه ؛ لما قام فشهد . فقام اثنا عشر بديراً ، فقالوا : نشهد أنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يوم غدیر خمّ : ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجي أمهاتهم ؟ فقلنا : بلى ، يا رسول الله . قال : فمن كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه »^(٣).

الثاني : بيان استلاب حقهم عليهم السلام :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي ، مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وآله حتى يوم الناس هذا »^(٤).
ومن خطبة له عليه السلام : « اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم ،

(١) نهج البلاغة : ١٤٣ — الخطبة ٩٧ .

(٢) نهج البلاغة : ٢٠١ — الخطبة ١٤٤ .

(٣) مسند أحمد ١ : ٨٨ و ١١٨ ، فضائل الصحابة / لأحمد بن حنبل ٢ : ٥٨٥ / ٩٩١ و ٩٩٢ ، أسد الغابة ٢ : ٢٣٣ ، الاصابة ٤ : ١٨٢ ترجمة عبدالرحمن بن مدلج .

(٤) نهج البلاغة : ٥٣ — الخطبة ٦ .

فإنهم قطعوا رحمي ، وصعّروا عظيم مترلتي ، وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي ؛ ثم قالوا : ألا أنّ في الحقّ أن تأخذه ، وفي الحقّ أن تتركه « (١) .

ومن خطبة له عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به ؟ فقال : « يا أحبا بني أسد ، أتتلك لقلق الوضين ، ترسل في غير سد ، ولك بعدُ ذمامة الصهر وحقّ المسألة ، وقد استعلمت فاعلم ؛ أما الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسباً ، والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله نوطاً ، فإنها كانت أثره شحّت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين ، والحكم الله ، والمعود إليه القيامة. ودع عنك نهباً صيح في حجراته « (٢) .

ومن خطبة له عليه السلام ، وهي المعروفة بالشقشقية : « أما والله لقد تقمّصها فلان ، وإنه ليعلم أنّ محليّ منها محلّ القطب من الرحا ، ينحدر عنّي السيل ، ولا يرقى إليّ الطير. فسدلت دونها ثوباً ، وطويت عنها كشحاً ، وطفقت أرتمي بين أن أصول بيد جدّاء ، أو أصير على طخية عمياء ، يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه ! فرأيت أنّ الصير على هاتا أحجى ، فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجاً ، أرى تراثي نهباً .

حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى فلانٍ بعده. ثمّ تمثّل عليه السلام بقول

(١) نهج البلاغة : ٢٤٦ — الخطبة ١٧٢ .

(٢) نهج البلاغة : ٢٣١ — الخطبة ١٦٢ .

الأعشى :

شَتَان ما يومي على كورها
ويوم حيان أخي جابر
فيا عجباً ! بينا هو يستقبلها في حياته ، إذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشد ما
تشطراً ضرعيها ، فصيرها في حوزة خشناء ، يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ،
ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها ، فصاحبها كراكب الصعبة ، إن أشنق لها
حرم ، وإن أسلس لها تقحّم ، فمني الناس — لعمر الله — بخبط وشماس ، وتلَوْن
واعترض.

فصبرت ، على طول المدة ، وشدة المحنة ، حتى إذا مضى لسبيله ، جعلها
في جماعة زعم أي أحدهم ! فيا لله وللشورى ، متى اعتراض الريب في مع
الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر ! لكنني أسففت إذ أسفوا ،
وطرت إذ طاروا. فصغوا رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره ، مع هن وهن ،
إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حصنيه ، بين نثيله ومعتلفه. وقام معه بنو أبيه ،
يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع ، إلى أن انتكث عليه فتله ، وأجهز
عليه عمله ، وكبت به بطنته.

فما راعني إلا والناس كعرف الضبيع إلي ، ينشالون علي من كل جانب ،
فلما نهضت بالأمر ، نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون ، كأنهم لم
يسمعوا الله سبحانه يقول : ﴿ تَلِكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا
فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) بلى والله ، لقد سمعوها ووعوها ،

(١) سورة القصص : ٢٨ / ٨٣.

ولكنّهم حليت الدنيا في أعينهم ، وراقهم زبرجها... » (١).

الثالث : الردّ على مدّعيات أصحاب الشورى :

ردّ أمير المؤمنين عليه السلام على ذرائع أهل الشورى التي تمسّكوا بها لنيل الخلافة ، كالاختيار ورضا الجماعة والصحبة وغيرها ، حيث قال : « واعجباً أن تكون الخلافة بالصحابة ، ولا تكون بالصحابة والقرابة.

قال الرضي رحمته الله : وقد روي له شعر قريب من هذا المعنى وهو :

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم فكيف بهذا والمشيرون غيَّب
وإن كنت بالقربي حججت خصيمهم فغيرك أولى بالنبي وأقربُ » (٢)

قال ابن أبي الحديد : حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه ؛ لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : « امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها ، شدّتها ورخائها ، فامدد أنت يدك ، فقال علي عليه السلام : إذا احتججت لاستحقاقه الأمر بصحبته إياه في المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شركه في ذلك وزاد عليه بالقرابة !

وأمّا النظم فموجّه إلى أبي بكر ، لأنّ أبا بكر حاجّ الأنصار في السقيفة ، فقال : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله ويبيضته التي تفقّأت عنه ، فلمّا بويع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقد. فقال

(١) نهج البلاغة : ٤٨ — الخطبة ٣.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١٨ : ٤١٦.

علي عليه السلام : أما احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك ، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد ، فكيف ثبت ! » ^(١).

وأما الاحتجاج بحديث صلاة أبي بكر بالناس عند مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد ذكر ابن أبي الحديد خلاصة كلام شيخه أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعاني ، ولم يكن يتشيع ، وكان شديداً في الاعتزال ، وقد ذكر في كلامه ما روي عن علي عليه السلام أن عائشة أمرت بلالاً مولى أبيها أن يأمره ليصلي بالناس ، لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — كما ورد في الخبر — قال : ليصل بهم أحدهم. ولم يعين ، وكانت صلاة الصبح ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في آخر رمقٍ يتهدى بين علي عليه السلام والفضل بن العباس ، حتى قام في المحراب ، ثم دخل فمات ارتفاع الضحى ، فجعلوا يوم صلاته حجة في صرف الأمر إليه ، وقالوا : أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدمهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة ! ولم يحملوا خروج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصلاة لصرفه عنها ، بل لمخافته على الصلاة مهما أمكن ، فبُويع على هذه النكته التي اتهمها علي عليه السلام على أنها ابتدأت منها.

وكان علي عليه السلام يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ، ويقول : « إته لم يقل صلى الله عليه وآله وسلم : إنكن لصويجات يوسف ؛ إلا إنكاراً لهذه الحال ، وغضباً منها ، لأنها

(١) شرح ابن أبي الحديد ١٨ : ٤١٦.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٩٠
وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبييهما ، وأتته استدركها بخروجه وصرفه
عن المحراب » (١).

موارد من التصحيح :

أثيرت العديد من الشبهات في الساحة الإسلامية حول موضوع الإمامة ، يجردها هوى الحكام على طول الطريق ، لإحساسهم بعدم شرعية سلطتهم ، الأمر الذي يدفع الحكام سواء كانوا أمويين أم عباسيين إلى تصفية الإمام الذي يعاصرهم غيرة وحسداً ، لاعتقادهم القاصر بامتلاك الشرعية بهذا الفعل الشنيع ، بل ودفع المأمون إلى إعطاء الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد ، لإضفاء تلك الشرعية على سلطانه ، وعلى امتداد الزمن تُثار الشبهات حول إمامة أهل البيت عليهم السلام تحت ستار كثيف من الزيف ، بحرب إعلامية مفتوحة يدير دفتها أصحاب السلطة والصولجان بالأموال والمرزقة ، أو أقطاب الفرق الضالة المناوئة ، وقد رصدنا من تلك الإثارات قولهم : لماذا لم يسمّ علياً وأهل بيته في كتاب الله عزّ وجلّ؟ ولماذا ينتسب أهل البيت عليهم السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقال لهم : يا بني رسول الله ، وإنما ينسب المرء إلى أبيه ؟ وكيف يقولون أنهم ذرية النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والنبي لم يعقب ، وإنما العقب للذكر لا للأنثى ؟ وقولهم : إن علياً عليه السلام قتل أهل النهروان وهو لهم ظالم ، وقد أجاب أهل البيت عليهم السلام عن أمثال هذه الإثارات بحجج واضحة ، ففندوها وعملوا على وضعها في مسارها

(١) شرح نهج البلاغة ٩ : ١٩٧ ، بحار ٢٨ : ١٥٩ .

الصحيح.

عن أبي بصير قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ^(١) فقال : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام .

فقلت له : إن الناس يقولون : فماله لم يسمّ علياً وأهل بيته عليهم السلام في كتاب الله عزّ وجلّ ؟ قال : فقال : قولوا لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمّ لهم من كل أربعين درهماً درهم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزل الحج فلم يقل لهم : طوفوا أسبوعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم ، ونزلت ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ في علي والحسين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام : من كنت مولاه فعلي مولاه . وقال صلى الله عليه وآله : أوصيكم بكتاب الله وأهل بيته ، فإتيي سألت الله عزّ وجلّ أن لا يفرّق بينهما حتى يوردهما على الحوض ، فأعطاني ذلك . وقال : لا تعلموهم فهم أعلم منكم . وقال : إنهم لن يخرجوكم من باب هدى ، ولن يدخلوكم في باب ضلالة .

فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن من أهل بيته ، لادّعاها آل فلان وآل فلان ، لكنّ الله عزّ وجلّ أنزله في كتابه تصديقاً لنبيه صلى الله عليه وآله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٩٢

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴿١﴾ ^(١) فكان علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء في بيت أم سلمة ، ثم قال : اللهم إن لكل نبي أهلاً وثقلاً ، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي ، فقالت أم سلمة : ألسنت من أهلك ؟ فقال : إنك إلى خير ^(٢) ، ولكن هؤلاء أهلي وثقلي ، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله كان عليّ أولى الناس بالناس ، لكثرة ما بلغ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وإقامته للناس وأخذه بيده ... » ^(٣).

وعن هاني بن محمد بن محمود ، عن أبيه ، رفعه إلى موسى بن جعفر عليهما السلام أنه قال : « دخلت على الرشيد فقال لي : لِمَ حَوِّزْتُمُ لِلْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ أَنْ يَنْسَبُوكُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَيَقُولُونَ لَكُمْ : يَا بَنِي رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَنْتُمْ بَنُو عَلِيٍّ ، وَإِنَّمَا يُنْسَبُ الْمَرْءُ إِلَى أَبِيهِ ، وَفَاطِمَةُ إِنَّمَا هِيَ وَعَاءٌ ، وَالنَّبِيُّ جَدُّكُمْ مِنْ قَبْلِ أُمَّكُمْ ؟ »

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ / ٣٣.

(٢) أخرج الترمذي وغيره عن أم سلمة : أن النبي صلى الله عليه وآله جلّل علي الحسن والحسين وعلي وفاطمة كساء ، وقال : اللهم أهل بيتي وحامتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة : وأنا معهم يارسول الله ؟ فقال : إنك إلى خير. سنن الترمذي ٥ : ٣٥١ / ٣٢٠٥ و ٥ : ٦٦٣ / ٣٧٨٧ و ٦٦٩ / ٣٨٧١. وروى حديث الكساء في مسند أحمد ٤ : ١٠٧ و ٦ : ٢٩٢ و ٤ : ٣٠٤. ومصابيح السنة ٤ : ١٨٣. ومستدرک الحاكم ٢ : ٤١٦ و ٣ : ١٤٨ وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه ، وتفسير الطبري ٢٢ : ٦ و ٧. وتاريخ بغداد ٩ : ١٢٦ و ١٠ : ٢٧٨. وأسد الغابة ٢ : ١٢ و ٤ : ٢٩. والمعجم الكبير / الطبراني ٩ : ٢٥ / ٨٢٩٥ ، ٢٣ : ٢٤٩ و ٢٨١ و ٣٢٧ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٧ و ٣٩٦.

(٣) الكافي ١ : ٢٨٦ / ١.

فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أن النبي ﷺ نشر فخطب إليك كرىمتك ، هل كنت تجيبه ؟ فقال : سبحان الله ! ولم لا أجيبه ؟ بل أفتخر على العرب والعجم وقريش بذلك. فقلت : لكنه ﷺ لا يخطب إلي ولا أزوجه. فقال : ولم ؟ فقلت : لأنه ولدي ولم يلدك. فقال : أحسنت ياموسى .

ثم قال : كيف قلت إن ذرية النبي ﷺ ، والنبي لم يعقب ، وإنما العقب للذكر لا للإناثى ، أنتم ولد البنت ، ولا يكون لها عقب ؟

فقلت : أسألك بحق القرابة والقبر ومن فيه إلا ما أعفيتني عن هذه المسألة. فقال : لا أو تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي ، وأنت ياموسى يعسوبهم وإمام زمانهم ، كذا أنهى إلي ، ولست أعفيك في كل ما أسألك عنه ، حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب الله تعالى ، وأنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شيء ألف ولا واو وإلا وتأويله عندكم ، واحتجتم بقوله عزوجل : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(١) وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم.

فقلت : تأذن لي في الجواب ؟ فقال : هات ! فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ ^(٢) من أبو عيسى يأمير المؤمنين ؟ فقال : ليس لعيسى أب .

(١) سورة الأنعام : ٦ / ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام : ٦ / ٨٤ — ٨٥ .

فقلت : إنما ألحقناه بذراري الأنبياء : من طريق مريم عليها السلام ، وكذلك ألحقنا
بذراري النبي صلى الله عليه وآله من قبل أمنا فاطمة عليها السلام .

أزديك يَا مِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قال : هات ! قلت : قول الله عزوجل : ﴿ فَمَنْ
حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ ^(١) ولم
يَدَّعِ أَحَدٌ أَنَّهُ أَدْخَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله تَحْتَ الْكِسَاءِ عِنْدَ مِبَاهِلَةِ النَّصَارَى إِلَّا عَلِيَّ بْنَ
أَبِي طَالِبٍ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عليهم السلام فَكَانَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ :
﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ ﴿ وَنِسَاءَنَا ﴾ فَاطِمَةَ ﴿ وَأَنْفُسَنَا ﴾ عَلِيَّ بْنَ أَبِي
طَالِبٍ » ^(٢) .

وعن عيسى بن عبد الله العلوي قال : « حدثني الأسدي ومحمد بن
مبشر أن عبد الله بن نافع الأزرق كان يقول : لو أي علمت أن بين قطريها
أحداً تبلغني إليه المطايا يخصمني أن علياً قتل أهل النهروان وهو لهم غير
ظالم ، لرحلت إليه .

ف قيل له : ولا ولده ؟ فقال : أي ولده عالم ؟ ف قيل له : هذا أول جهلك ،
وهم يخلون من عالم ؟! قال : فمن عالمهم اليوم ؟ قيل : محمد بن علي بن
الحسين بن علي عليهم السلام .

قال : فرحل إليه في صناديد أصحابه حتى أتى المدينة ، فاستأذن

(١) سورة آل عمران : ٣ / ٦١ .

(٢) عيون أخبار الرضا ١ : ٨٣ .

على أبي جعفر عليه السلام ، فقيل له : هذا عبد الله بن نافع ، فقال : وما يصنع بي وهو يبرأ مني ومن أبي طربي النهار ؟ فقال له أبو بصير الكوفي : جعلت فداك ، إن هذا يزعم أنه لو علم أن بين قطريها أحداً تبلغه المطايا إليه يخصمه أن علياً عليه السلام قتل أهل النهروان وهو لهم غير ظالم لرحل إليه . فقال له أبو جعفر عليه السلام : أترأه جاءني مناظراً ؟ قال : نعم ، قال : يا غلام ، اخرج فحطّ رحله وقل له : إذا كان الغد فأتنا .

قال : فلما أصبح عبد الله بن نافع غداً في صناديد أصحابه ، وبعث أبو جعفر عليه السلام إلى جميع أبناء المهاجرين والأنصار ، فجمعهم ثم خرج إلى الناس في ثوبين مغمّرين ، وأقبل على الناس كأنه فلقة قمر . فقال : الحمد لله حيث الحيث ، ومكّيف الكيف ، ومؤيّن الأيّن ، الحمد لله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض... وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وآله عبده ورسوله اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . الحمد لله الذي أكرمنا بنبوته ، واختصنا بولايته . يامعشر أبناء المهاجرين والأنصار ، من كانت عنده منقبة في علي بن أبي طالب عليه السلام فليقم وليتحدث . قال : فقام الناس فسردوا تلك المناقب .

فقال عبد الله : أنا أروى لهذه المناقب من هؤلاء ، وإنما أحدث عليّ الكفر بعد تحكيمه الحكمين — حتى انتهوا في المناقب إلى حديث خبير — : لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ، ويحبّ الله ورسوله ، كراراً غير فرار ، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه . فقال أبو جعفر عليه السلام : ما تقول في

هذا الحديث فقال : هو حق لا شك فيه ، ولكن أحدث الكفر بعد.

فقال له أبو جعفر عليه السلام : ثكلتك أمك أحبرني عن الله عز وجل أحب علي ابن أبي طالب يوم أحبه وهو يعلم أنه يقتل أهل النهروان ، أم لم يعلم ؟ قال ابن نافع : أعد علي. فقال له أبو جعفر عليه السلام : أحبرني عن الله جل ذكره أحب علي بن أبي طالب يوم أحبه وهو يعلم أنه يقتل أهل النهروان ، أم لم يعلم ؟ قال : إن قلت : لا ، كفرت. قال : فقال : قد علم. قال : فأحبه الله على أن يعمل بطاعته ، أو على أن يعمل بمعصيته ؟ فقال : على أن يعمل بطاعته. فقال له أبو جعفر عليه السلام : فقم مخصوصاً ، فقام وهو يقول : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ^(١) الله أعلم حيث يجعل رسالته » ^(٢).

ومن الشبهات المثارة في هذا الاتجاه ، اتهام أئمة أهل البيت عليهم السلام بادعاء علم الغيب ، والتهمة غالباً ما تكون من قبل الحكام أو المرتبطين بهم ، الأمر الذي أنكره أهل البيت عليهم السلام بشدة ، فحينما أقدم المنصور الإمام الصادق عليه السلام إلى الكوفة بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، وصار بين يديه قال له المنصور : « أنت الذي تعلم الغيب ؟ فقال عليه السلام : لا يعلم الغيب إلا الله » ^(٣).

وقال يحيى بن عبد الله بن الحسن لأبي الحسن عليه السلام : « جعلت فداك ، انهم يزعمون أنك تعلم الغيب ؟ فقال عليه السلام : سبحان الله ! ضع يدك على رأسي ،

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٨٧.

(٢) الكافي ٨ : ٣٤٩ / ٥٤٨.

(٣) مقاتل الطالبين : ٢٣٢.

فوالله ما بقيت شعرة فيه ولا في جسدي إلّا قامت. — ثم قال : — لا والله ما هي إلّا وراثه عن رسول الله ﷺ « (١).

١١ — الإسلام والإيمان :

اتفقت كلمة أهل البيت عليهم السلام على أن الإسلام غير الإيمان ، وأن كل مؤمن فهو مسلم وليس كل مسلم مؤمناً ، وأن الفرق بين هذين المعنيين في الدين كما كان في اللسان ، وأجمعت المعتزلة وكثير من الخوارج والزيدية على خلاف ذلك ، وزعموا أن كل مسلم مؤمن ، وأنه لا فرق بين الإسلام والإيمان في الدين (٢).

وقد ردّ أهل البيت عليهم السلام على جميع المقولات التي تساوي بين المسلم والمؤمن للتقليل من شأن العمل بالفرائض ، مؤكداً أن الإيمان ليس كلاماً وحسب ، بل هو عقد بالقلب وعمل بالجوارح.

قال أمير المؤمنين عليه السلام : « قد يكون الرجل مسلماً ولا يكون مؤمناً ، ولا يكون مؤمناً حتى يكون مسلماً ، والإيمان إقرار باللسان ، وعقد بالقلب ، وعمل بالجوارح » (٣).

وعن أبي الصباح الكناني ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قيل لأمير المؤمنين عليه السلام : من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ كان مؤمناً؟ قال : فأين فرائض الله؟

(١) أمالي المفيد : ٢٣ / ٥ .

(٢) أوائل المقالات / المفيد : ٤٨ / ١٤ .

(٣) خصائص الأئمة / الشريف الرضي : ١٠٠ .

قال : وسمعته يقول : كان علي عليه السلام يقول : لو كان الإيمان كلاماً لم يتزل فيه صوم ولا صلاة ولا حلال ولا حرام.

قال : وقلت لأبي جعفر عليه السلام : إن عندنا قوماً يقولون : إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله فهو مؤمن ، قال : فلم يضربون الحدود ، ولم تقطع أيديهم؟! وما خلق الله عزوجل خلقاً أكرم على الله عزوجل من المؤمن ؛ لأن الملائكة خدام المؤمنين ، وإن حوار الله للمؤمنين ، وإن الجنة للمؤمنين ، وإن الحور العين للمؤمنين ، ثم قال : فما بال من جحد الفرائض كان كافراً؟! ^(١).

١٢ — تصحيح عقائد الفرق والردّ عليها :

عاصر أئمة أهل البيت عليهم السلام فترة السجال العقائدي في غضون القرن الأول والثاني والثالث من الهجرة ، الذي صاحبه نشوء مختلف الفرق الإسلامية ، كالخوارج والمعتزلة والواقفة والمرجئة والجريئة والمفوضة والأشاعرة وغيرهم ، وكان لهم عليهم السلام ولأصحابهم مناظرات وكلمات مسهبة مع أصحاب تلك الفرق بهدف تصحيح المسار ، منها كلام لأمرير المؤمنين عليهم السلام في إبطال مقولة الخوارج : لا حكم إلا لله ، قال عليه السلام : « كلمة حق يُراد باطل؟! . نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر ، يعمل في إمرته المؤمن ، ويستمتع فيها الكافر ، ويبلغ الله فيها الأجل ، ويجمع به الفسء ، ويقاتل به العدو ، وتأمين به

(١) الكافي ٢ : ٣٣ / ٢ .

السبل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي ، حتى يستريح به برّ ، ويستراح من فاجر» (١).

وتعد المرجئة من الفرق التي نشأت في أحشاء السلطة ، والإرجاء هو التأخير ، وهم يؤخّرون العمل عن الإيمان ، ويقولون إنّ الإيمان معرفة بالقلب وتصديق باللسان ، ولا يضرّ معه ذنب ، كما أنّهم أرجأوا الحكم في مرتكب الكبيرة إلى الله تعالى ، ورجعوا الثواب لأهل المعاصي ، لقولهم : لا تضرّ مع الإيمان معصية (٢).

وروّج الطغاة الأمويون البغاة لفكرة الإرجاء ، سيما معاوية بن أبي سفيان وأصحابه ، ليبرّروا عبثهم بأحكام الدين ، وتعطيل كتاب الله وسنة نبيه ، واستباحة حرّات المؤمنين واستبدادهم بحقوقهم ، وهم مع كلّ ذلك مؤمنون لا يضرّ بإيمانهم شيء ، ولا ينقص في إيمانهم عمل !!

ومن هنا وقف الأئمة عليهم السلام بوجه هذا الفكر الهدام بكل حزم وصلابة.

ومن ردود الإمام الصادق عليه السلام على المرجئة : « عن ابن أبي نجران ، عن ذكره ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت. فقال : هؤلاء قوم يترجحون في الأمان ، كذبوا ، ليسوا براجين ، إن من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه » (٣).

(١) نهج البلاغة ١ : ٩١ / خ ٤٠ — تحقيق محمد عبده.

(٢) راجع : الملل والنحل ١ : ١٢٥.

(٣) الكافي ٢ : ٦٨ / ٦.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠٠
وعن محمد بن حفص بن خارجة قال : « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول ،
وسأله رجل عن قول المرتجة في الكفر والإيمان ، وقال : إنهم يحتجون
علينا ويقولون : كما أن الكافر عندنا هو الكافر عند الله ، فكذلك نجد
المؤمن إذا أقرّ بإيمانه أنه عند الله مؤمن .

فقال عليه السلام : سبحان الله ! وكيف يستوي هذان ، والكفر إقرار من العبد ، فلا
يكلف بعد إقراره ببينة ، والإيمان دعوى لا يجوز إلّا ببينة ، وببنته عمله ونيته ،
فإذا اتفقا فالعبد عند الله مؤمن ، والكفر موجود بكلّ جهة من هذه الجهات
الثلاث ؛ من نية أو قول أو عمل ، والأحكام تجري على القول والعمل ، فما
أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان ، ويجري عليه أحكام المؤمنين ، وهو
عند الله كافر ! وقد أصاب من أجرى عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله
وعمله » (١).

وللإمام الرضا عليه السلام مناظرات وأحاديث كثيرة في الرد على الواقفة ،
وهم الذين وقفوا على الإمام الكاظم عليه السلام بسبب بعض النوازع المادية ،
حيث تجمعت لديهم أموال طائلة من الحقوق المالية في وقت كان فيه
الإمام عليه السلام في سجن الرشيد ، فطمعوا فيها وادعوا بعد شهادة الإمام عليه السلام أنه
حيّ لم يمّت ، وأصبح الوقف فيما بعد تياراً فكرياً يتبناه بعض من لم
تترسخ لديه مبادئ العقيدة الحقّة ، فيقف عند بعض الأئمة عليهم السلام ، وكان
الواقفة من أشد الناس عناداً للحق ، ورغم ذلك استطاع الإمام الرضا عليه السلام

(١) الكافي ٢ : ٣٩ / ٨ .

الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد ١٠١
إبطال مزاعمهم وإسقاط القناع عن وجوههم ، بالحكمة والموعظة الحسنة
والمنطق السليم ، مما جعلهم يرجعون إلى سواء السبيل .

ومن إجاباته عليه السلام لهم ، ما روي عن أبي جرير القمي ، قال : « قلت لأبي
الحسن عليه السلام : جعلت فداك ، قد عرفت انقطاعي إلى أبيك ثم إليك ، ثم حلفت
له : وحق رسول الله عليه السلام وحق فلان وفلان حتى انتهيت إليه بأنه لا يخرج
مني ما تخبرني به إلى أحد من الناس ، وسألته عن أبيه أحي هو أو ميت ؟
فقال : قد والله مات . فقلت : جعلت فداك ، إن شيعتك يروون : أن فيه سنة
أربعة أنبياء ، قال : قد - والله الذي لا إله إلا هو - هلك . قلت : هلاك غيبة أو
هلاك موت ؟ قال : هلاك موت ، فقلت : لعلك مني في تقية ؟ فقال :
سبحان الله ! قلت : فأوصى إليك ؟ قال : نعم . قلت : فأشرك معك فيها أحداً ؟
قال : لا . قلت : فعليك من إخوتك إمام ؟ قال : لا . قلت : فأنت الإمام ؟ قال :
نعم » ^(١) . وكان نتيجة جهود الإمام الرضا والأئمة التاليين له عليه السلام أن ثاب
كبار أقطاب الواقعة إلى رشدهم ، واستبصروا إلى طريق الحق .

١٣ - خلق الجنة والنار وخلودهما :

إن الجنة والنار في هذا الوقت مخلوقتان ، وبذلك جاءت الأخبار
والآثار عن أهل البيت عليه السلام ، وقد خالف في هذا القول المعتزلة والخوارج
وطائفة من الزيدية ^(٢) ، وتعرض الأئمة عليه السلام إلى تصحيح المقالات المخالفة

(١) الكافي ١ : ٣٨٠ / ١ .

(٢) أوائل المقالات : ١٢٤ / ١٣٤ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠٢
في هذا السياق ، لوضعها في مسارها الصحيح.

عن أبي الصلت الهروي ، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، قال : « قلت له :
يا بن رسول الله ، فأخبرني عن الجنة والنار ، أهما اليوم مخلوقان ؟ قال :
نعم. وإن رسول الله صلى الله عليه وآله قد دخل الجنة ورأى النار لما عرج به إلى السماء.
قال : فقلت له : إنَّ قوماً يقولون : أهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين ؟ فقال :
ما أولئك منا ولا نحن منهم ، من أنكر خلق الجنة والنار فقد كذب النبي صلى الله عليه وآله
وكذبنا ، وليس من ولايتنا على شيء ، ويخلد في نار جهنم. قال الله عز وجل :
﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ (١) ،
وقال النبي صلى الله عليه وآله : لما عرج بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل عليه السلام فأدخلني
الجنة ، فناولني من رطبها فأكلته ، فتحول ذلك نطفةً في صلي ، فلما هبطت
إلى الأرض وقعت حديجة فحملت بفاطمة ، ففاطمة حوراء إنسيّة ، فكلمّا
اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رائحة ابنتي فاطمة » (٢).

١٤ — هداية الخلق :

إنَّ أهل البيت عليهم السلام هم شمس الهداية لهذه الأمة وسفن نجاتها ، يقول
أمير المؤمنين عليه السلام : « انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم ،
فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى » (٣).

وهذا نوع من التصحيح لما كان سائداً من أتباع غير من أمر الله

(١) سورة الرحمن : ٥٥ / ٤٣ — ٤٤.

(٢) التوحيد : ١١٧ / ٢١ ، عيون أخبار الرضا : ١ / ١١٥ . ٣.

(٣) نهج البلاغة ، خطبة ٩٧.

الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد ١٠٣

ورسوله باتباعه ، من قبل التمسك بسنة الشيخين ، ونحو ذلك من مفتريات عقائدية ما أنزل الله بها من سلطان ، وإرشاد الناس إلى معرفة الحق ، وفي طليعته التمسك بسنة أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم العملية المتمثلة بسمو الأخلاق وحسن السمات والعبادة والزهد والتواضع وغيرها من معالي الأخلاق ، أو من خلال وعظهم وإرشادهم وكراماتهم التي جباها الله لهم ، مما له بالغ الأثر في إسلام غير المسلمين ، أو هداية واستبصار المنحرفين عن جادة الطريق ، وإنقاذهم من التردد في تيه الضلال إلى ساحل الأمان .

وهنا يسجل الأئمة عليهم السلام مواقف هي من صميم واجبات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ، لأنهم قادة الرسالة والمعنيين بتبليغها ، والمسؤولين عن بناء وصياغة الإنسان الذي يريده الإسلام ، بالدعوة إلى الإصلاح والهداية والإرشاد في أوساط الأمة ، وسجل التاريخ حالات نادرة في هذا الاتجاه ، منها هزيمة الإمام الحسين عليه السلام التي تأثر بها كثير من الناس فصاروا ثواراً حتى سقطوا شهداء في مذبح الحربة ، كزهير بن القين الذي كان عثمانى الهوى ، والحر بن يزيد الرياحي الذي كان من قادة الجيش الأموي في الكوفة ، وعلى يد أئمة أهل البيت عليهم السلام أسلم بعض علماء اليهود وهربان النصراني لإذعائهم بالتفوق العلمي ^(١) ، وامتدت آثارهم الروحية إلى قاعدة واسعة من الناس ، فتاب بعضهم وعاد إلى هدي

(١) راجع : قرب الاسناد : ١٣٢ ، الكافي ١ : ٢٢٧ / ١ و ٤٧٨ / ٤ و ٤٨١ / ٥ ، التوحيد : ٢٧٠ ، مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٨٦ و ٤٢٦ ، الخرائج والجرائح ١ : ١١١ / ١٨٦ و ٤٢٢ ، بحار الأنوار ٤٨ : ١٠٥ و ٥٠ : ٢٦٠ / ٢١ و ٢٨١ / ٥٧ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠٤

الإسلام ، أو اهتدى إلى ولاية أهل البيت عليهم السلام ، وكان منهم رجال سلطة (١)
وعلماء ومن عامة الناس (٢).

من هنا علينا حين نقرأ أهل البيت عليهم السلام أن نفتح عليهم لترداد هدياً
من هديهم ، وعلمنا من علمهم ، ووعينا مما يعطوننا من عناصر الوعي.

* * *

(١) راجع : اثبات الوصية : ٢٤٠ ، الخرائج والجرائح ١ : ٤٠٢ / ٨ ، دلائل الامامة / الطبري : ٤١٩ / ٣٨٢ ، نوادر المعجزات / الطبري : ١٨٨ / ٧ ، مهج الدعوات : ٣٣٠ - ٣٣٧ ، الثاقب في المناقب : ٥٣٩ ، فرج المهموم : ٢٣٣ .

(٢) راجع : الكافي ١ : ٣٥٣ / ٨ و ٥٠٨ / ٨ و ٥١٣ / ٢٦ ، اثبات الوصية / المسعودي : ٢٢٢ ، الارشاد ٢ : ٢٢٣ ، منهج الكرامة / العلامة الحلي : ٥٨ ، تاريخ بغداد ١٣ : ٣٢ ، تاريخ أبي الفداء ٢ : ١٥ ، مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٢٩٧ و ٤٠٧ ، كشف الغمة ٣ : ١٧٩ .

الفصل الثالث

معالم التصحيح في السنن والأحكام

أكد أهل البيت عليهم السلام في إصدار الأحكام على ضرورة التمسك بالكتاب الكريم واتباع سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله ، وعلى الفقيه أن لا يكون تابعاً لما يميله عليه سلطان الهوى والظن وحبّ الدنيا.

عن أبان بن تغلب ، عن أبي جعفر عليه السلام أنه سئل عن مسألة فأجاب فيها ، قال : « فقال الرجل : إن الفقهاء لا يقولون هذا ، فقال : ويحك ! وهل رأيت فقيهاً قطّ؟! إنّ الفقيه حقّ الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وآله » ^(١).

وعن عبد الرحمن بن الحجاج ، قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن مجالسة أصحاب الرأي ، فقال : جالسهم وإياك عن خصلتين تهلك فيهما الرجال : أن تدين بشيء من رأيك ، أو تفني الناس بغير علم » ^(٢).

من هنا اكتسبت مدرسة أهل البيت عليهم السلام سمات بارزة متميزة عن سائر المدارس الفقهية المعاصرة لهم عليهم السلام ، لأنها تستمد مقوماتها من

(١) الكافي ١ : ٧٠ / ٨ .

(٢) المحاسن : ٢٠٥ / ٥٦ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠٦
أحكام القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وليس فيها شيء من عمل الرأي أو
القياس والاستحسان وما شابه ذلك ، وتمييز بالشمولية ، إذ لم تشرع لجيل
خاص من الناس ، ولا لزمان معين محدود ، وإنما شرعت للناس جميعاً
إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن الموارد التي انبرى أئمة أهل البيت عليهم السلام لتصحيحها تمتد
لتستوعب كل أبواب الفقه وفروعه المتعددة مما يضيق عن استيعابها هذا
الكتاب ، وقد تكفلت بها كثير من المصادر ، سواء المختصة ببيان الفقه
المقارن أو غيرها ، ومع ذلك يمكن تلخيص اتجاهات التصحيح في مجال
مصادر التشريع والأحكام والسنة بما يلي :

١ - إبطال القياس والرأي :

عاصر أهل البيت عليهم السلام ظهور مدرسة القياس والرأي بقوة في خط
الاجتهاد ، ومعنى القياس إسراء الحكم من موضوع إلى موضوع آخر
للظن بأن أساس الحكم هنا هو أساس الحكم هناك ، وقد بدأ القياس
كقاعده من قواعد الاستنباط في عصر الإمام الصادق عليه السلام من قبل
المذهب الحنفي ، ووقف أئمة أهل البيت عليهم السلام ضد هذه القاعدة الاجتهادية ،
ورفضوا القياس رفضاً قاطعاً لأنه يؤدي إلى تهميش النصوص الشرعية ،
ولا يرتكز إلى حجة شرعية ، وليس سوى الظن ، وإن الظن يحق الدين
ولا يغني عن الحق شيئاً ، وهناك عشرات الأحاديث الناطقة بما ذكرناه.

عن زرارة بن أعين قال : « قال لي أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام :

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١٠٧
يازرارة ، إياك وأصحاب القياس في الدين ، فأنهم تركوا علم ما وكلوا به
وتكلفوا ما قد كفهوه ، يتأولون الأخبار ويكذبون على الله عزوجل ، وكأني
بالرجل منهم ينادى من بين يديه فيجيب من خلفه ، وينادى من خلفه
فيجيب من بين يديه ، قد تاهوا وتحيروا في الأرض والدين » (١).

وعن ابن أبي عمير ، عن غير واحد ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « لعن الله
أصحاب القياس ، فأنهم غيروا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، واتهموا
الصادقين في دين الله » (٢).

وعدّ أهل البيت عليهم السلام اتباع الرأي والاستحسانات الذاتية في الأحكام
نوْعاً من الابتداع في الدين ، وترك الكتاب والسنة ضلال وكفر ، لأن
أحكام الشريعة بمفاهيمها الكلية لا تضيق عن مصالح العباد ، ولا تقصر
عن حاجاتهم ، وهي مسايرة لمختلف الأزمنة والأمكنة والبيئات
والأحوال. قال الإمام أبو الحسن الكاظم عليه السلام ليونس بن عبد الرحمن :
« يايونس ، لا تكونن مبتدعاً ، من نظر برأيه هلك ، ومن ترك أهل بيت نبيه
ضلّ ، ومن ترك كتاب الله وقول نبيه كفر » (٣).

مناظرة الفقهاء وهدايتهم :

للإمام الصادق عليه السلام جملة مناظرات مع أصحاب القياس والرأي كأبي
حنيفة وابن أبي ليلى وعبد الله بن شبرمة ، وللإمام الكاظم عليه السلام مناظرات

(١) أمالي المفيد : ٥١ / ١٢ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ٥٩ / ٣٣١٩٣ .

(٢) أمالي المفيد : ٥٢ / ١٣ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ٥٩ / ٣٣١٩٤ .

(٣) الكافي ١ : ٥٦ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٠٨

مع أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ومحمد بن يوسف الشيباني ،
تجري مجرى الحجج العقلية المقنعة المستندة إلى الكتاب والسنة ، لرد
هذا التيار المدمر ، كما أن للإمام الصادق عليه السلام في هذا المضمون رسالة
وجهها إلى أصحاب الرأي والقياس ^(١) ، ومن مناظراته وكلماته الناصحة
بالتخلي عن هذه القواعد في الأحكام ، ما رواه الشيخ الطبرسي عن أبي
عبد الله عليه السلام أنه قال لأبي حنيفة : «أبما أعظم عند الله ، القتل أو الزنا ؟ قال :
بل القتل. فقال عليه السلام : فكيف رضي في القتل بشاهدين ، ولم يرضَ في الزنا إلَّا
بأربعة ؟! ثم قال له : الصلاة أفضل أم الصيام ؟ قال : بل الصلاة أفضل.
قال عليه السلام : فيجب على قياس قولك على الحائض قضاء ما فاتها من الصلاة في
حال حيضها دون الصيام ، وقد أوجب الله عليها قضاء الصوم دون الصلاة. ثم
قال له : البول أقدر أم المني ؟ فقال : البول أقدر. فقال : يجب على قياسك أن
يجب الغسل من البول دون المني ، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني
دون البول.

— إلى أن قال عليه السلام — : تزعم أنك تفني بكتاب الله ولست ممن ورثه ،
وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس إبليس ، ولم يبنَ دين الله على
القياس ، وزعمت أنك صاحب رأي ، وكان الرأي من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم صواباً ومن
غيره خطأً ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ^(٢) ولم يقل ذلك

(١) المحاسن : ٢٠٩ / ٧٦ .

(٢) سورة المائدة : ٥ / ٤٨ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١٠٩
لغيره... » ^(١).

وعن ابن أبي ليلى قال : « دخلت أنا والنعمان على جعفر بن محمد — إلى أن قال : — ثم قال : يانعمان ، إياك والقياس ، فإن أبي حدثني عن آبائه أن رسول الله ﷺ قال : من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله مع إبليس في النار ، فإن أول من قاس إبليس حين قال : خلقتني من نار وخلقته من طين ، فدع الرأي والقياس ، وما قال قوم ليس له في دين الله برهان ، فإن دين الله لم يوضع بالأراء والمقاييس » ^(٢).

وعن معاوية بن ميسرة بن شريح قال : « شهدت أبا عبد الله عليه السلام في مسجد الخيف وهو في حلقة فيها نحو من مائتي رجل وفيهم عبد الله بن شبرمة ، فقال له : يا أبا عبد الله ، إنا نقضي بالعراق فنقضي بالكتاب والسنّة ، ثم ترد علينا المسألة فنجتهد فيها بالرأي — إلى أن قال : — فقال أبو عبد الله عليه السلام : فأبي طالب عليه السلام ؟ فأطراه ابن شبرمة ، وقال فيه قولاً عظيماً ، فقال له أبو عبد الله عليه السلام : فإن علياً أبي أن يدخل في دين الله الرأي ، وأن يقول في شيء من دين الله بالرأي والمقاييس — إلى أن قال : — لو علم ابن شبرمة من أين هلك الناس ما دان بالمقاييس ولا عمل بها » ^(٣).

(١) الاحتجاج : ٣٦١ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ٤٨ / ٣٣١٧٨ .

(٢) علل الشرائع : ٨٨ / ٤ ، وسائل الشيعة ٢٧ : ٤٧ / ٣٣١٧٦ .

(٣) وسائل الشيعة ٢٧ : ٥١ / ٣٣١٨٣ .

٢ - تصحيح ما أعضل على الخلفاء المعاصرين لهم عليهم السلام :

كان علي وأولاده المعصومون عليهم السلام مراجع لأهل زمانهم من خلفاء وغيرهم ، يرجعون إليهم في كل معضلة ، ويلجأون إليهم في كل مأزق ، وقد تكرر قول عمر بن الخطاب : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن. وقوله : لولا علي لهلك عمر. ذلك لأنهم أعلم الناس وأفضلهم بعد النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله .

وقد تحدثت الكثير من الأخبار عن قضايا ابتلي فيها الخلفاء المعاصرين لأهل البيت عليهم السلام ، ولم يهتدوا إلى وجه الصواب فيها إلّا بمراجعتهم ، فكانوا عليهم السلام يجيبون عنها طالما يتعلق الأمر بمصالح المسلمين وخدمة الدين الحنيف.

فقد روي أنه ذكر عند عمر بن الخطاب في إيامه حلي الكعبة وكثرته ، فقال قوم : « لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين ، كان أعظم للأجر ، وما تصنع الكعبة بالحلي ! فهم عمر بذلك ، وسأل عنه أمير المؤمنين علي عليه السلام ، فقال : إنّ هذا القرآن أنزل على محمد صلوات الله عليه وآله والأموال أربعة : أموال المسلمين فقسّمها بين الورثة في الفرائض ، والفنيء فقسّمه على مستحقّيه ، والخمس فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها ، وكان حلي الكعبة فيها يومئذٍ ، فتركه الله على حاله ، ولم يتركه نسياناً ، ولم يخف عنه مكاناً ، فأقرّه حيث أقره الله ورسوله. فقال له عمر : لولاك لافتضحنا ! وترك الحلي بحاله » (١).

(١) نهج البلاغة : ٥٢٢ - الحكمة ٢٧٠ ، شرح ابن أبي الحديد ١٩ : ١٥٨ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١١١

وعن قتادة عن الحسن : « أن عمر بن الخطاب أراد أن يرحم مجنوننة ، فقال له علي عليه السلام : ما لك ذلك ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : رُفِعَ القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الطفل حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يبرأ ، أو يعقل ، فأدراً عنها عمر » ^(١).

وعن زيد بن علي ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي عليه السلام قال : « لما كان في ولاية عمر ، أتى بامرأة حامل ، فسألها عمر ، فاعترفت بالفجور ، فأمر بها عمر أن تُرحم ، فلقبها علي بن أبي طالب عليه السلام فقال : ما بال هذه ؟ فقالوا : أمر بها أمير المؤمنين أن تُرحم ، فردّها علي عليه السلام ، فقال : أمرت بما أن تُرحم ؟ فقال : نعم ، اعترفت عندي بالفجور . فقال : هذا سلطانك عليها ، فما سلطانك على ما في بطنها ؟ قال علي عليه السلام : فلعلك انتهرتها أو أخفتها ؟ فقال : قد كان ذلك . قال : أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : لاحد على معترف بعد بلاء ، إنه من قيّدت أو حبست أو تهدّدت ، فلا إقرار له ، فخلّى عمر سبيلها ، ثم قال : عجزت النساء أن يلدن مثل علي بن أبي طالب ، لولا علي لهلك عمر » ^(٢).

وعن أبي الأسود قال : إنَّ عمر أتى بامرأة قد وضعت لستة أشهر ، فهمّ برجمها ، فبلغ ذلك علياً عليه السلام ، فقال : ليس عليها رجم ، فبلغ ذلك عمر ، فأرسل إليه يسأله ، فقال علي عليه السلام : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ ﴾ ^(٣) وقال : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ

(١) مسند أحمد ١ : ١٤٠ .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام / الخوارزمي : ٣٩ .

(٣) سورة البقرة : ٢ / ٢٣٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١١٢
شَهْرًا ﴿١﴾ فسنة أشهر حمله ، وحولين تمام الرضاعة ، لا حدّ عليها . قال :
فخلّي عنها ، ثم ولدت بعد لسته أشهر » (٢) .

وعن يوسف بن السخت ، قال : « اشتكى المتوكّل شكاةً شديدةً ، فنذر
لله إن شفاه الله يتصدّق بمال كثيرٍ ، فعوفي من علته ، فسأل أصحابه عن
ذلك ، فأعلموه أن أباه تصدّق بثمانية ألف ألف درهم ، وإن أراه تصدّق
بخمسة ألف ألف درهم ، فاستكثر ذلك . فقال أبو يحيى بن أبي منصور
المنجم : لو كتبت إلى ابن عمّك — يعني أبا الحسن عليه السلام — فأمر أن يكتب له
فيسأله ، فكتب إليه ، فكتب أبو الحسن عليه السلام : تصدّق بثمانين درهماً ، فقالوا :
هذا غلط ، سلوه من أين قال هذا ؟ فكتب عليه السلام ، قال الله لرسوله : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ
اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ (٣) والمواطن التي نصر الله رسوله صلى الله عليه وآله فيها ثمانون
موطناً ، فثمانون درهماً من حلّه مال كثير » (٤) .

وعن عبد الله بن محمد الجعفي قال : « كنت عند أبي جعفر عليه السلام وجاءه
كتاب هشام بن عبد الملك في رجل نبش امرأة فسلبها ثيابها ثم نكحها ،
فإن الناس قد اختلفوا علينا هاهنا ؛ فطائفة قالوا : اقتلوه ، وطائفة قالوا :
أحرقوه ؟ فكتب إليه أبو جعفر عليه السلام : إن حرمة الميت كحرمة الحيّ ، حدّه أن
تقطع يده لنبشه وسلبه الثياب ، ويقام عليه الحدّ في الزنا ؛ إن أحصن رُجم ،

(١) سورة الأحقاف : ٤٦ / ١٥ .

(٢) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام / الخوارزمي : ٤٩ — ٥٠ .

(٣) سورة التوبة : ٩ / ٢٥ .

(٤) تفسير العياشي ٢ : ٢٢٦ / ١٨٠٤ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١١٣
وإن لم يكن أحسن جلد مائة « (١).

٣ - تصحيح ما أخطأ فيه الفقهاء أو اختلفوا :

من المسلم أن أهل البيت عليهم السلام قد علموا بدقائق ما كان عند الناس ، وزادوا عليهم بخصائص علمهم الموروث من جدهم المصطفى وأبيهم المرتضى عليهما السلام . وقد شاع قول أبي حنيفة في الإمام الصادق عليه السلام : لم أرَ أفقه من جعفر بن محمد الصادق ، وإنه لأعلم الناس باختلاف الناس (٢).

وتحدثت الأخبار عن مزيد من الأحكام التي أخطأ أو تردد فيها الفقهاء ، فكان لأهل البيت عليهم السلام الكلمة الفصل ، منها ما رواه أبو بصير قال : « سألت أبا جعفر عليه السلام عن شهادة ولد الزنا تجوز ؟ قال : لا ، فقلت : إن الحكم ابن عتبية يزعم أنها تجوز فقال : اللهم لا تغفر له ذنبه ، ما قال الله للحكم : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (٣) فليذهب الحكم يميناً وشمالاً ، فوالله لا يوجد العلم إلا من أهل بيت نزل عليهم جبرئيل « (٤).

وعن علي بن مهزيار ، عن أبي جعفر عليه السلام قال : « قيل له : إن رجلاً تزوج بجارية صغيرة فأرضعتها امرأته ، ثم أرضعتها امرأة له أخرى ، فقال ابن شيرمة : حُرمت عليه الجارية وامرأته. فقال أبو جعفر عليه السلام : أخطأ ابن شيرمة ، حُرمت عليه الجارية وامرأته التي أرضعتها أولاً ، فأما الأخيرة فلم

(١) الكافي ٧ : ٢٢٨ / ٢ .

(٢) تهذيب الكمال ٥ : ٧٩ ، سير أعلام النبلاء ٦ : ٢٥٧ .

(٣) سورة الزحرف : ٤٣ / ٤٤ .

(٤) الكافي ١ : ٤٠٠ / ٥ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١١٤
تحرم عليه ، لأنها أرضعت ابنته » ^(١).

وعن محمد بن الفضيل قال : « قال أبو الحسن موسى عليه السلام لأبي يوسف
القاضي : إن الله تبارك وتعالى أمر في كتابه بالطلاق ، وأكد فيه بشاهدين ، ولم
يرض بهما إلا عدلين ، وأمر في كتابه بالتزويج فأهمله بلا شهود ، فأثبتتم
شاهدين فيما أهمل ، وأبطلتم الشاهدين فيما أكد » ^(٢).

وعن إبراهيم بن ميمون ، أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام فقال : « يعطى الراعي
الغنم بالجبل يراعها وله أصوافها وألبانها ، ويعطينا لكل شاة دراهم ، فقال :
ليس بذلك بأس ، فقلت : إن أهل المسجد ^(٣) يقولون : لا يجوز ، لأنّ منها ما
ليس له صوف ولا لبن. فقال أبو عبد الله عليه السلام : وهل يطيبه إلا ذلك ، يذهب
بعضه ويبقى بعض » ^(٤).

وورد في تفسير العياشي أنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة ، فسأل
المعتصم إقامة الحدّ عليه ، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه ، وقد
أحضر محمد بن علي الجواد عليه السلام ، فسألهم عن القطع في أيّ موضع يجب
أنّ يقطع ؟ فقال ابن أبي دوّاد ^(٥) : من الكرسوع ، لأنّ اليد هي
الأصابع والكف إلى الكرسوع ، لقول الله في التيمم : ﴿ فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ

(١) التهذيب ٧ : ٢٩٣ / ٦٨ ، الكافي ٥ : ٤٤٦ / ١٣ .

(٢) الكافي ٥ : ٣٨٧ / ٤ .

(٣) يريد فقهاء المدينة .

(٤) الكافي ٥ : ٢٢٤ / ٢ .

(٥) وهو أحمد بن أبي دوّاد بن جرير ، ولي القضاء للمعتصم ثمّ للواثق. تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١١٥

وَأَيِّدِيكُمْ ﴿١﴾ واتفق معه على ذلك قوم. وقال آخرون : بل يجب القطع من المرفق ، لأنَّ الله لما قال : ﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ ﴿٢﴾ في الغسل دلَّ ذلك على أن حدَّ اليد هو المرفق ، فالتفت المعتصم إلى محمد بن علي الجواد عليه السلام ، فقال : ما تقول في هذا يا أبا جعفر ؟... فقال : « أما إذا أقسمت عليَّ بالله إنِّي أقول إنَّهم أخطأوا فيه السنَّة ، فإنَّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع ، فيترك الكف. قال : وما الحجة في ذلك ؟ قال : قول رسول الله صلى الله عليه وآله : السجود على سبعة أعضاء : الوجه واليدين والركبتين والرجلين. فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبقَ له يد يسجد عليها ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿٣﴾ وما كان الله لم يقطع ، قال : فأعجب المعتصم ذلك ، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف ، قال ابن أبي دؤاد : قامت قيامتي وتمنيت أني لم أكُ حيًّا ﴿٤﴾ .

٤ — تصحيح أحكام اختلف فيها أصحابهم :

وكان أصحاب الأئمة عليهم السلام لا يختلفون في نازلة أو يبتلون في معضلة إلَّا واستفتوهم أو كتبوا إليهم ، ليكونوا على بينة من دينهم ، وقد تحدثت الأخبار عن المزيد من هذه الموارد ، منها عن خيران الخادم قال : « كتبت

(١) سورة النساء : ٤ / ٤٣ .

(٢) سورة المائدة : ٥ / ٦ .

(٣) سورة الجن : ٧٢ / ١٨ .

(٤) تفسير العياشي ١ : ٣١٩ — ٣٢٠ / ١٠٩ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١١٦
إلى الرجل عليه السلام ، أسأله عن الثوب يصيبه الخمر ولحم الخنزير ، أوصلى فيه
أم لا ؟ فإن أصحابنا قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : صلّ فيه ، فإن الله إنما
حرم شربها ، وقال بعضهم : لا تصلّ فيه ؟ فكتب عليه السلام : لا تصلّ فيه فإنه
رجس» ^(١).

وروى إسحاق بن عبد الله العلوي العريضي قال : « ركب أبي
وعمومي إلى أبي الحسن علي بن محمد عليهما السلام وقد اختلفوا في الأربعة
أيام التي تصام في السنة ، وهو مقيم بصريا قبل مصيره إلى سر من رأى....
فقال : اليوم السابع عشر من ربيع الأول ، وهو اليوم الذي وُلد فيه
رسول الله صلى الله عليه وآله ، واليوم السابع والعشرون من رجب ، وهو اليوم الذي بُعث فيه
رسول الله صلى الله عليه وآله ، واليوم الخامس والعشرون من ذي القعدة ، وهو اليوم الذي
دُحيت فيه الأرض ، واليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، وهو الغدير » ^(٢).

٥ - تصحيح الأدعية المأثورة :

أدّب أهل البيت عليهم السلام أصحابهم على الالتزام بلفظ الدعاء الوارد عن
المعصوم دون تحريف أو زيادة أو نقصان ، ونهوا عن تخطي النصوص
المأثورة باعتبارها توقيفية يجب التعبد بخصوص ألفاظها ليتحقق الأثر
الروحي المترتب عليها ، من هنا صححوا لأصحابهم مزيداً من تلك
النصوص التي وقع التحريف أو التبديل بها على لسانهم.

(١) الكافي ٣ : ٤٠٥ / ٥ .

(٢) بحار الأنوار ٩٦ : ٢٦٦ / ١٣ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١١٧

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : « لا يقولنَّ أحدكم : اللهمَّ إني أعوذ بك من الفتنة ، لأنه ليس أحد إلَّا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن من استعاذ فليستعد من مضلات الفتن ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ^(١) .

وعن إسماعيل بن الفضل ، قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَسِخِّ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ ^(٢) فقال : فريضة على كل مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات وقبل غروبها عشر مرات : لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . قال : فقلت : لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، ويميت ويحيي . فقال : يا هذا ، لا شك في أن الله يحيي ويميت ، ويميت ويحيي ، ولكن قل كما أقول ^(٣) .

وعن عبد الله بن سنان قال : « قال أبو عبد الله عليه السلام : ستصيبكم شبهة فتبتقون بلا علم يرى ، ولا إمام هدى ، ولا ينجو منها إلَّا من دعا بدعاء الغريق ، قلت : كيف دعاء الغريق ؟ قال : يقول : يا الله يارحمن يارحيم يامقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك . فقلت : يا الله يارحمن يارحيم يامقلب القلوب والأبصار ، ثبت قلبي على دينك . قال : إن الله عزَّ وجلَّ مقلب القلوب

(١) جمع البيان ٤ : ٨٢٤ ، والآية من سورة الأنفال : ٨ / ٢٨ .

(٢) سورة طه : ٢٠ / ١٣٠ .

(٣) الخصال : ٤٥٢ / ٥٨ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١١٨
والأبصار ، ولكن قل كما أقول لك : يامقلب القلوب ثبت قلبي على
دينك » ^(١).

٦ — تصحيح بعض الممارسات والمقولات الخاطئة :

درج الناس على بعض الأفعال والأقوال التي لا تنسجم مع روح
الشريعة الغراء ومبادئ الإسلام العظيم ، والإمام باعتباره قائداً روحياً
وموجهاً يتحرك في الوسط الإسلامي ، يرصد تلك الممارسات ويجعلها
في إطارها الصحيح ، ومن ذلك أن أحدهم هنأ بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام
رجلاً بغلام ولد له ، فقال له : « ليهنك الفارس . فقال عليه السلام : لا تقل ذلك ، ولكن
قل : شكرت الواهب ، وبورك لك في الموهوب ، وبلغ أشده ، ورزقت
بره » ^(٢).

ولقيه عليه السلام عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار ، فترجلوا له واشتدوا
بين يديه فقال عليه السلام : ما هذا الذي صنعتموه ؟ فقالوا : خلق منا نعظّم به
أمراءنا . فقال : والله ما يبتفع بهذا أمراؤكم ، وإنكم لتشقّون به على أنفسكم
في دنياكم ، وتشقّون به في آخرتكم ، وما أخسر المشقة وراءها العقاب ،
وأربح الدعة معها الأمان من النار ! » ^(٣).

وأقبل حرب بن شرحبيل الشبامي ، وكان من وجوه قومه يمشي مع
أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وكان عليه السلام راكباً ، فقال له : « ارجع ، فإن مشي مثلك

(١) إكمال الدين : ٣٥١ / ٤٩ .

(٢) نهج البلاغة : ٥٣٧ — الحكمة ٣٥٤ .

(٣) نهج البلاغة : ٤٧٥ — الحكمة ٣٧ .

الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام ١١٩

مع مثلي فتنة للوالي ومذلة للمؤمن» (١).

وهكذا كانت سيرة عترة المصطفى ﷺ وسننهم اختصاراً لسيرة جدهم المصطفى ﷺ وسننه ، جسّدوها مصالحين ومقومين لكل ما عداها من البدع التي طرأت على واقع المسلمين.

(١) هجج البلاغة : ٥٣٢ — الحكمة ٣٢٢.

الفصل الرابع

معالم الاصلاح السياسي

يمكن قراءة دور الأئمة عليهم السلام في تصحيح المشهد السياسي بعد رحلة الرسول صلى الله عليه وآله في ثلاثة مباحث رئيسية :

المبحث الأول

حكومة الإمام علي عليه السلام

على الرغم من مرارة تجربة الحكومة التي تصدّى لها أمير المؤمنين عليه السلام بعد البيعة بسبب انشغاله بالقتال على التأويل ، فقد أثبتت تلك التجربة فرائدها بما أحدثته من تحولات ثورية للعودة بالمجتمع إلى روح التجربة المحمدية الأولى ، وتطبيق نظرية الإسلام الحقيقي في العدل ، وسنة المصطفى صلى الله عليه وآله في تساوي البشر في الحقوق ، مما أسهم في تغيير الواقع الطبقي والثورة ضد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ويمكن أن نتلمّس ذلك بما يلي :

١ — الإصلاح السياسي :

ومن أبرز معالمه :

١ — عمل عليه السلام على عزل ولاية عثمان وعماله عن الأقاليم من أمثال

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٢٢
الوليد بن عقبة ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعبد الله بن عامر ،
ومعاوية بن أبي سفيان ، وغيرهم ممن عاثوا في الأرض فساداً ، وساموا
العباد ظلماً وعدواناً ، فأبعدوهم عن معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وآله ،
وتعيين بدائل لهم من ذوي السابقة والاستقامة والعدل والقرب من
النبي صلى الله عليه وآله ، لأنه يرى أن الرعية لا تصلح إلّا بصلاح الولاة ، ولا تصلح
الولاة إلّا باستقامة الرعية.

من خطبة له عليه السلام ، قال : « فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة ، ولا
تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعية. فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه ، وأدى
الوالي إليها حقها ، عزّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم
العدل ، وجرت على إذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع في بقاء
الدولة ، ويمتد مطامع الأعداء » ^(١).

٢ — مراقبة العمال والولاة وتوجيههم أو محاسبتهم إذا اقتضت
الضرورة ذلك ، وله عليه السلام في هذا الخصوص مكاتبات ووصايا كثيرة إلى
أمرء الأجناد وغيرهم مبثوثة في (نهج البلاغة).

قال ابن عبد البرّ : « ولا يخص بالولايات إلّا أهل الديانات
والأمانات. وإذا بلغه عن أحدهم جنابة كتب إليه : قد جاءكم موعظة من
ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا

(١) نهج البلاغة : ٣٣٣ — الخطبة ٢١٦.

الفصل الرابع : معالم الإصلاح السياسي ١٢٣
تعثوا في الأرض مفسدين. بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم
بحفيظ. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك من عملنا حتى نبعث إليك
من يتسلمه منك. — ثم يرفع طرفه إلى السماء فيقول — : اللهم إنك تعلم إني
لم آمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك «^(١).

وكان عليّ يعتبر الولاية أمانة في عنق الوالي عليه صيانتها ، وليست
أداة للاستغلال وتحقيق المآرب الشخصية ، فمن كتاب له عليّ إلى الأشعث
ابن قيس عامله على أذربيجان : « إنَّ الملك ليس لك بطعمة ، ولكنه في
عنقك أمانة... »^(٢).

٣ — تدوين نظام اداري للدولة الإسلامية بهدف الإصلاح الشامل لكل
مرافق الحياة ، يتمثل ذلك في عهد أمير المؤمنين عليّ إلى مالك الأشتر ،
وعهده إلى محمد بن أبي بكر ، وهما إضاءة مشرقة وصفحة فذة من
صفحات تراثنا الفكري الوضّاء ، لأهمّما يشتملان على برنامج الدولة
الإسلامية في نظامها الإداري والقضائي والسياسي والتكافل الاجتماعي
والعمراني ، ويعكسان الفكر الاجتماعي الثوري المتقدم لأمير
المؤمنين عليّ ، وجملة وصاياه التي ترسم العلاقة بين الجهاز الحاكم وسائر
الطبقات الاجتماعية التي ذكرها فيه بالتفصيل.

ومن عهده عليّ للأشتر النخعي لما ولّاه على مصر وأعمالها ، قال :

(١) الاستيعاب ٣ : ٤٨ .

(٢) نهج البلاغة : ٣٦٦ — الكتاب ٥ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٢٤

« واعلم أنّ الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلّا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ؛ فمنها جنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة ، وكلّاً قد سمى الله سهمه ، ووضع على حدة فريضته في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً »^(١).

٢ — الإصلاح الديني :

ويمكن أن نتأمله فيما يلي :

أ — العمل بكتاب الله وإحياء السنّة :

عمل أمير المؤمنين عليه السلام على إقامة معالم الدين وإظهار الإصلاح وإقامة الحدود على ضوء الكتاب الكريم وهدى السنّة المباركة.

قال عليه السلام : « اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ، ولا التماس شيء من فضول الحطام ، ولكن لندردّ العالم من دينك ، ونظهر الإصلاح في بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلّة من حدودك ... »^(٢).

ومن خطبة له عليه السلام قال : « إنه ليس على الإمام إلّا ما حمل من أمر ربه ؛ الإبلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والإحياء للسنّة ، وإقامة

(١) نهج البلاغة : ٤٣١ — الكتاب ٥٢.

(٢) نهج البلاغة : ١٨٩ — الخطبة ١٣١.

الحدود على مستحقيها ، وإصدار السُّهمان على أهلها »^(١).

ومن خطبة له عليه السلام قال : « اقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن ، وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص »^(٢).

وكان كل شيء في علي عليه السلام يذكر الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه نسخة ناطقة بسنته ومكارم أخلاقه ، فحينما يصلي بهم في البصرة يذكرهم بصلاة رسول الله صلى الله عليه وآله ، الأمر الذي يصور التبديل والإهمال الذي طرأ على كل معالم الدين ومنها الصلاة.

عن أبي موسى الأشعري قال : « لقد ذكرنا علي بن أبي طالب عليه السلام ونحن بالبصرة صلاةً كنا نصليها مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، إما نسيناها ، وإما تركناها عمداً ؛ يكبر كلما ركع ، وكلما رفع ، وكلما سجد »^(٣).

وعن مطرف بن عبد الله ، قال : « صليت خلف علي بن أبي طالب عليه السلام أنا وعمران بن حصين ، فكان إذا سجد كبر ، وإذا رفع رأسه كبر ، وإذا نهض من الركعتين كبر ، فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال : قد ذكرني هذا صلاة محمد صلى الله عليه وآله ، أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد عليه

(١) نهج البلاغة : ١٥٢ — الخطبة ١٠٦.

(٢) نهج البلاغة : ١٦٣ — الخطبة ١١٠.

(٣) مسند أحمد ٤ : ٣٩٢ و ٤٠٠ و ٤١١ و ٤١٥.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٢٦
الصلاة والسلام» (١).

وحيثما نشر علي عليه السلام رايته لقتال الناكثين في البصرة ، ذكرهم براية رسول الله صلى الله عليه وآله التي طالما حفّت بها الملائكة المسوّمون ، يقول قيس بن سعد بن عبادة (٢) :

هذا اللواء الذي كُنّا نَحِفُّ به مع النبيّ وجبريلَ لنا مَدَدُ (٣)
ولا يخفى ما في ذلك من دفع معنوي باتجاه الجهاد تحت راية الرسول صلى الله عليه وآله وهي في يد وصيه وخليفته من بعده.

ب — الوقوف بوجه البدع والمحدثات :

حثّ أمير المؤمنين عليه السلام الناس على إماتة البدع ومحدثات الأمور لأنها ليست من الدين ، فمن كلام له عليه السلام : « وما أحدثت بدعة إلّا ترك بها سنّة ، فاتقوا البدع ، والزموا المهيع ، إنّ عوازم الأمور أفضلها ، وإنّ محدثاتها شرارها » (٤).

(١) صحيح البخاري ١ : ٣١٢ / ١٧٤ — كتاب الصلاة — باب اتمام التكبير في السجود.

(٢) صحابي جليل ، من ذوي الدهاء في الحرب ، ومن ذوي التّجدة والجُود ، كان شريف قومه غير مُدافع ، ومن بيت سيادتهم ، وكان يحمل راية الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وآله ، وصحّب عليّاً عليه السلام في خلافته ، فولّاه مصر سنة ٣٦ — ٣٧ هـ ، وشاركه في حروبه ، وتوفّي نحو سنة ٦٠ هـ بعد أن صحّب الحسن عليه السلام . تهذيب التهذيب ٨ : ٣٩٥ ، الأعلام للزركلي ٥ : ٢٠٦ .

(٣) أسد الغابة ٤ : ٢١٦ ، الغدير ٢ : ٧٨ .

(٤) نهج البلاغة : ٢٠٢ — الخطبة ١٤٥ .

وحارب عليّاً الكثير من البدع التي شاعت خلال عهد الخلفاء الذين سبقوه كالكهانة والتنجيم والتصوف وقصص المساجد والاسرائيليات وغيرها. فمن كلام له عليّاً قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم .

فقال عليّاً : أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء ، وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضرر؟! فمن صدق بهذا فقد كذب القرآن ، واستغنى عن الإعانة بالله في نيل المحبوب ودفن المكروه. وتتغنى في قولك للعامل بأمرك أن يوليكَ الحمد دون ربه ، لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع ، وأمن الضرر — ثم أقبل عليّاً على الناس فقال — : أيها الناس ، إياكم وتعلم النجوم إلّا ما يهتدى به في برّ أو بحر ، فإنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن ، والكاهن كالساحر ، والساحر كالكافر ، والكافر في النار. سيروا على اسم الله »^(١).

وقد استطاع عليّاً أن يصحح كثيراً من الانحرافات ، ويتدارك مزيداً من الإفراطات ، وأن يعيدها إلى صورتها الأولى ، وتمهّل في بعضها بسبب ما وصفه من المداحض التي حالت دون ما يريد منتظراً استعادة وعي الأمة واستثارة الطاعة فيها ، « إذ لا رأي لمن لا يُطاع » كما يقول عليّاً^(٢).

(١) نهج البلاغة : ١٠٠ — الخطبة ٧٩.

(٢) نهج البلاغة : ٧١ — الخطبة ٢٧.

قال عليه السلام : « لو قد استوت قدماي من هذه المداحض لغيرت أشياء.

يقول محمد عبده : المداحض : المزالق ، يريد بها الفتن التي ثارت عليه ، ويقول إنه لو ثبتت قدماه في الأمر ، وتفرغ ، لغير أشياء من عادات الناس وأفكارهم التي تبعد عن الشرع الصحيح » ^(١).

ويقول ابن أبي الحديد : « لسنا نشك أنه كان يذهب في الأحكام الشرعية والقضايا إلى أشياء يخالف فيها أقوال الصحابة ، نحو قطعه يد السارق من رؤوس الأصابع ، ويبيع أمهات الأولاد ، وغير ذلك ، وإنما كان يمنعه من تغيير أحكام من تقدمه اشتغاله بحرب البغاة والخوارج ، وإلى ذلك يشير بالمداحض التي كان يؤمل استواء قدميه منها ، ولهذا قال لقضاته : اقضوا كما كنتم تقضون حتى يكون للناس جماعة ، فلفظة (حتى) هاهنا مؤذنة بأنه فسح لهم في اتباع عادتهم في القضايا والأحكام التي يعهدونها إلى أن يصير للناس جماعة ... » ^(٢).

وكان من جملة البدع التي تصدّى لها علي عليه السلام صلاة التراويح التي ظهرت في أيام عمر وبقيت إلى خلافته عليه السلام ، ولكن حالت المداحض التي ذكرها دون ما يريد.

جاء في شرح النهج لابن أبي الحديد عن السيد المرتضى : « أن عمر خرج في شهر رمضان ليلاً فرأى المصاييح في المسجد ، فقال : ما هذا؟

(١) نهج البلاغة / شرح محمد عبده ٣ : ٢١٩ — الحكمة ٢٧٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١٩ : ١٦١.

الفصل الرابع : معالم الاصلاح السياسي ١٢٩

فقيل له : إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوع ! فقال : بدعة فنعمت البدعة !
فاعترف — كما ترى — بأنها بدعة ، وقد شهد الرسول ﷺ أن كل بدعة ضلالة .

وقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام لما اجتمعوا إليه بالكوفة ، فسأله أن
ينصب لهم إماماً يصلي بهم نافلة شهر رمضان ، زجرهم وعرفهم أن ذلك
خلاف السنة ، فتركوه واجتمعوا لأنفسهم وقدموا بعضهم ، فبعث إليهم ابنه
الحسن عليه السلام ، فدخل عليهم المسجد ومعه الدرّة ، فلما رأوه تبادروا الأبواب
وصاحوا : واعمرها ! «^(١) .

٣ — الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي :

ويمكن ملاحظته في اتجاهين :

أولاً — إلغاء مظاهر الاستتار :

وقف أمير المؤمنين عليه السلام موقفاً حاسماً تجاه القطاع التي جعلها عثمان
ملكاً لأولياته وأعوانه وولاته الأمويين ، فبنوا القصور ، واتخذوا الدور ،
وانصرفوا إلى الترف والدعة واللهو ، فاشترى الجوارى والقيان ، وارتكبوا
المحرمات ، وتحولت أموال المسلمين إلى طعمة لقلّة قليلة من المتنفّذين
الذين أطلق عثمان العنان لهم في الاستتار بحقوق الناس ، ولقد حذّر
أمير المؤمنين عليه السلام عثمان من هذا الواقع قبل مقتله .

روى الواقدي في كتاب (الشورى) عن ابن عباس أنه عليه السلام قال

(١) شرح ابن أبي الحديد ١٢ : ٢٨٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٣٠
لعثمان : « وانظر هل بقي من عمرك إلّا كظمء الحمار ، فحتى متى وإلى متى ! ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأمواهم ! والله لو ظلم عامل من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك .

قال ابن عباس : فقال عثمان : لك العتبي ، وافعل واعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون ، ثم افترقا ، فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك ، وقال : يجترئ عليك الناس ، فلا تعزل أحداً منهم ! » ^(١) .

وقد أعلن أمير المؤمنين عليه السلام سياسته المالية القائمة على عدم الأثرة قبل البيعة ، وشدّد على أن يكون ذلك شرطاً أساسياً فيها ، وكأنه يعلم أن تلك السياسة ستكون سبباً من أسباب نكث البيعة من قبل الطبقة المتنفذة من قريش .

قال عليه السلام : « إنكم قد اختلفتم إلي ، وأتيتم وإني قائل لكم قولاً إن قبلتموه قبلت أمركم ، وإلّا فلا حاجة لي فيه . قالوا : ما قلت من شيء قبلناه إن شاء الله ، فجاء فصعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه ، فقال : إني قد كنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلّا أن أكون عليكم ، ألا وأنه ليس لي أمر دونكم إلّا أن مفاتيح مالكم معي ، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم ، رضيتم ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم اشهد عليهم ، ثم بايعهم على ذلك » ^(٢) .

والأمر الآخر في هذا السياق هو قراره برّد قطائع عثمان إلى

(١) شرح ابن أبي الحديد ٩ : ١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ٤٢٨ — حوادث سنة ٣٥ .

المسلمين في اليوم الثاني من البيعة.

روى الكلبي مروية مرفوعة إلى أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما : « أن علياً عليه السلام خطب في اليوم الثاني من بيعته بالمدينة ، فقال : ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله ، فهو مردود في بيت المال ، فإن الحق القديم لا يبطله شيء ، ولو وجدته وقد تزوج به النساء ، وفرق في البلدان ، لرددته إلى حاله ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عنه الحق فالجور عليه أضيق » ^(١).

قال الكلبي : « فبلغ ذلك عمرو بن العاص ، وكان بأيلة من أرض الشام ، أتاه حيث وثب الناس على عثمان ، فترها فكتب إلى معاوية : ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه كما تقشر عن العصا لحاها » ^(٢).

وخلال حكومته عليه السلام لم يكن يستأثر بشيء من الفياء ، ولا يخصّ به حميماً ولا قريباً ^(٣) ، وكان يقول عليه السلام : « والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، وأجرّ في الأغلال مصفداً ، أحبُّ إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام . وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفوها ، ويطول في الثرى حلوها ! »

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٦٩ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧٠ .

(٣) الاستيعاب ٣ : ٤٨ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٣٢

والله لقد رأيت عقيباً وقد أملق حتى استماحي من برّكم صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غير الألوان من فقرهم ، كأنما سوّدت وجوههم بالعظم ، وعاودني مؤكداً ، وكرّر عليّ القول مردداً ، فأصغيت إليه سمعي ، فظنّ أبي أبعه ديني ، وأتبع قياده مفارقاً طريقي ، فأحميت له حديدةً ، ثم يحترق من ميسمها . فقلت له : ثكلتك الثواكل ياعقيل ، أتئن من حديدةٍ أمها إنسانها للعبه ، وتجريّني إلى نار سجّرها جبارها لغضبه ، أتئن من الأذى ، ولا أتئن من لظى !؟» ^(١) .

وكان عليه السلام شديداً في مراقبة عمّاله ومحاسبتهم إذا بدر منهم أيّ مظهر من مظاهر الاستتار بحقوق المسلمين ، وحريصاً على تطبيق هذه السياسة إلى آخر المدى . فمن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني — وهو عامله على أردشير خرّه — : « بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك ؛ أنك تقسم فيء المسلمين الذي حازته رماحهم وحيولهم ، وأريقته عليه دماؤهم ، فيمن اعتماك من أعراب قومك . فالذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقاً لتجدنّ بك علي هواناً ، ولتخفنّ عندي ميزاناً . فلا تستهن بحقّ ربك ، ولا تصلح دنياك بمحقّ دينك فتكون من الأخسرين أعمالاً . ألا وإن حقّ من قبلك وقبلنا من المسلمين في قسمة هذا الفيء سواء ، يردون عندي عليه ويصدرون عنه » ^(٢) .

(١) نهج البلاغة : ٣٤٦ الخطبة ٢٢٤ .

(٢) نهج البلاغة : ٤١٥ الكتاب ٤٣ .

ثانياً — المساواة :

كان علي عليه السلام رائد العدالة ومثلها الأعلى ، وقد حرص على تطبيقها بكل ما أوتي من قوة ، باعتباره قاعدة أساسية تضمن التكافل بين أبناء الدين الواحد ، وتقضي على أسباب الفقر. قال عليه السلام : « إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما مّتع به غني ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » ^(١).

من هنا انتصف للمستضعفين من أصحاب الثراء والسلطان ، وكان ديدنه توزيع ما يرد بيت المال على المسلمين في حينه ، بحيث لا يختزن فيه شيئاً حتى الرغيف والخيط والإبرة ، وكان يرشّه بعد أن يفرغه ويصلي فيه ركعتين ، ومضى في هذا السبيل إلى آخر الشوط.

كان نظام العطاء في حكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أساس التسوية بين المسلمين كافة ، ولا فرق فيه بين المولى والسيد ولا الأسود والأبيض ، ولما ولي عمر بن الخطاب ألقى نظام التسوية في توزيع العطاء ، وحدد معايير فضّل فيها بعض الناس على بعض ، منها : السابقة والهجرة والنسب وغيرها ، ففضّل السابقين على غيرهم ، وفضّل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، وفضّل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، وفضّل العرب على العجم ، وفضّل الصريح على المولى ^(٢). وبقي نظام العطاء على هذا المنوال في زمان عثمان لكنه فضّل بني أمية على

(١) نهج البلاغة : ٥٣٣ — الحكمة ٣٢٨.

(٢) راجع : شرح ابن أبي الحديد ٨ : ١١١.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٣٤

غيرهم ، وكان ولاته يأخذون لأنفسهم ما يشاؤون بلا حساب ودون رقيب ، فصار النظام الطبقي نظاماً بشعاً أدى إلى تداعيات وخيمة ، منها نشوء طبقة مترفة تستأثر برؤوس الأموال على حساب الأكثرية المسحوقة ، فوصلت ثروات بعض كبار المسلمين بالملايين في الوقت الذي يعيش الغالبية الحرمان والكفاف. وكان ذلك أحد الأسباب الأساسية التي جعل الناس يثورون على عثمان.

وحينما ولي أمير المؤمنين علي عليه السلام أعلن قراره القاضي بالمساواة التامة بين الناس في العطاء ، من أجل إشاعة العدل في توزيع الثروة وإلغاء كافة أسباب التمايز بين الناس ، فكان قرار انتزاع قطائع بني أمية وقرار التسوية من أول القرارات التي اتخذها علي عليه السلام في اليوم التالي من البيعة وطبقه عملياً في اليوم الثالث ، وتحمل مزيداً من العناء في هذا السبيل.

قال عليه السلام في خطبته في اليوم التالي للبيعة : « ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار ، وفجّروا الأنهار ، وركبوا الخيول الفارحة ، واتخذوا الوصائف الروقة ، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً ، إذا ما منعتم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتمهم إلى حقوقهم التي يعلمون ، فينقمون ذلك ، ويستنكرون ويقولون : حرمانا ابن أبي طالب حقوقنا !

ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يرى أن الفضل له على من سواه لصحبته ، فإن الفضل النير غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، وأيما رجل استجاب لله وللرسول ، فصَدَّقَ مَلَّتْنَا ،

ودخل في ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده .

فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، لا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله غداً أحسن الجزاء ، وأفضل الثواب ، لم يجعل الله الدنيا للمتقين أجراً ولا ثواباً ، وما عند الله خير للأبرار . وإذا كان غداً — إن شاء الله — فاغدوا علينا ، فإن عندنا مالاً نقسمه فيكم ، ولا يتخلفن أحد منكم ، عربي ولا عجمي ، كان من أهل العطاء أو لم يكن ، إلا حضر ، إذا كان مسلماً حراً . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

قال ابن أبي الحديد : قال شيخنا أبو جعفر : وكان هذا أول ما أنكروه من كلامه عليه السلام ، وأورثهم الضغن عليه ، وكرهوا إعطائه وقسمه بالسوية .

فلما كان من الغد ، غدا وغدا الناس لقبض المال ، فقال لعبيد الله بن أبي رافع كاتبه : ابدأ بالمهاجرين فنادهم ، وأعط كل رجل ممن حضر ثلاثة دنانير ، ثم ثنّ بالأنصار فافعل معهم مثل ذلك ، ومن يحضر من الناس كلهم الأحمر والأسود فاصنع به مثل ذلك .

فقال سهل بن حنيف : يا أمير المؤمنين ، هذا غلامي بالأمس ، وقد أعتقته اليوم . فقال : نعطيهِ كما نعطيكَ ، فأعطى كل واحد منهما ثلاثة دنانير ، ولم يفضل أحداً على أحد ، وتخلّف عن هذا القسم يومئذٍ طلحة ، والزبير ، وعبد الله بن عمر ، وسعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، ورجال من قريش وغيرها ^(١) .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٧ : ٣٧ .

وكان من نتائج هذا الإجراء أن أخذ بعض من بايعه يتسلل من المدينة ليلتحق بمعاوية هرباً من العدل ، وطفق طلحة والزبير وغيرهما يعلنون الاحتجاج ويظهرون الخلاف على سياسة علي عليه السلام القاضية بتطبيق نظام التسوية ، فقام أبو الهيثم وعمار وأبو أيوب وسهل بن حنيف وجماعة معهم ، فدخلوا على علي عليه السلام ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، انظر في أمرك ، وعاتب قومك ، هذا الحي من قريش ، فإنهم قد نقضوا عهدك ، وأخلفوا وعدك ، وقد دعونا في السرِّ إلى رفضك ، هداك الله لرشدك ! وذاك لأنهم كرهوا الأسوة ، وفقدوا الأثرة ، ولما آسيت بينهم وبين الأعاجم أنكروا واستشاروا عدوَّك وعظْموه ، وأظهروا الطلب بدم عثمان فرقة للجماعة وتألّفاً لأهل الضلالة. فأريك !

فخرج علي عليه السلام فدخل المسجد ، وصعد المنبر مرتدياً بطق ، مؤتراً ببرد قطري ، متقلداً سيفاً ، متوكتاً على قوس ، فقال : أنا أبو الحسن — وكان يقولها إذا غضب — ثم قال : ألا إن هذه الدنيا التي أصبحت تمنونها وترغبون فيها ، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ، ليست بداركم ولا متراكم الذي خلقتكم له ، فلا تغرّكنم فقد حذرتموها ، واستتموا نعم الله عليكم بالصبر لأنفسكم على طاعة الله ، والذلّ لحكمه جلّ ثناؤه ، فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثر ، وقد فرغ الله من قسمته ، فهو مال الله ، وأنتم عباد الله المسلمون ، وهذا كتاب الله به أقررنا ، وله أسلمنا ، وعهد نبينا صلى الله عليه وآله بين أظهرنا ، فمن لم يرضَ به فليتولّ كيف شاء ، فإن العامل بطاعة الله والحاكم بحكم الله لا

الفصل الرابع : معالم الاصلاح السياسي ١٣٧ وحشة عليه » (١).

وهكذا يريد علي عليه السلام أن يغرس في نفوسهم التطلع إلى أحر الآخرة ، ويتزع عنها حبّ الدنيا وزخرفها ، ولكن النفوس أبت العدل لما طال بها المقام على نظام الاستثناء على حساب الملايين الجائعة.

ولم يشن علي عليه السلام أي شيء عن تطبيق برنامجه الإصلاحية الثوري ، لقد كان موقفاً أصيلاً تمسك به إلى آخر الشوط ، مما جعل بعض الأطراف تتصدى لمحاربتة ، لأنها رأت أنه يهدد مكانتها الاجتماعية ، ويلغي امتيازاتها الطبقية ، فنقضوا بيعته ، وفارقوا طاعته ، وشهروا السيوف في وجه الحق والعدل والمساواة التي ينشدها علي عليه السلام ، أعلنوا الحرب تحت ستار الطلب بدم عثمان في حين كانوا أول الناس تأليماً عليه ، وشتم علي عليه السلام عن ساعد الحرب ، فكان قتال الناكثين والقاسطين والمارقين في الجمل وصفين والنهروان ، كما أخبره سيد المرسلين صلى الله عليه وآله.

٤ — في مجال الحرب :

١ — لم يكن علي عليه السلام في جهاده إلا طالباً للإصلاح ، متفانياً من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود ، وإظهار معالم الحق.

كتب علي عليه السلام إلى عماله ، يستحثهم على حرب القاسطين في الشام ، فكتب إلى مخنف بن سليم : « سلام عليك ، فإنني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه ، وهب في نعاس

(١) شرح ابن أبي الحديد ٧ : ٤٠ .

العمى والضلال اختياراً له ، فريضة على العارفين.

إنَّ الله يرضى عمَّن أرضاه ، ويسخط على من عصاه. وإنَّا قد هممنا بالمشير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا في عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفيء ، وعطلوا الحدود ، وأماتوا الحق ، وأظهروا في الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين وليجة من دون المؤمنين ، فإذا وليَّ الله أعظَمَ أحداثهم أبغضوه وأقصوه وحرّموه ، وإذا ظالم ساعدهم على ظلمهم أحبّوه وأدنوه وبرّوه ، فقد أصرّوا على الظلم ، وأجمعوا على الخلاف. وقد يمّا ما صدّوا عن الحقّ ، وتعاونوا على الإثم وكانوا ظالمين.

فإذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أو وثق أصحابك في نفسك ، وأقبل إلينا لعلك تلقى هذا العدو المحلّ ، فتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ، وتجماع الحقّ وتباين الباطل ، فإنّه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد... وكتب عبد الله بن أبي رافع سنة سبع وثلاثين»^(١).

٢ — مراسلات أمير المؤمنين عليه السلام مع أعدائه الذين حاربوه واحتجاجاته عليهم ووصاياهم إلى جنده ، تكشف عن حلمه وصفحه وحرصه على حقن دماء المسلمين ، وأنه تقبّل سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله في سيرته الحربية مع أعدائه ، بدافع إصلاح سنن الجهاد التي اندثرت بتمادي السنين.

قال ابن أبي الحديد : « وحاربه أهل البصرة وضربوا وجهه ووجوه

(١) وقعة صفين : ١٠٤ .

أولاده بالسيوف ، وشتموه ولعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، ونادى مناديه في أقطار العسكر : ألا لا يتبع مولٍ ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيَّز إلى عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ أثقالهم ، ولا سبى ذراريهم ، ولا غنم شيئاً من أموالهم ، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل ، ولكنه أبي إلا الصفح والعفو ، وتقييل سنة رسول الله ﷺ يوم فتح مكة ، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد ، والإساءة لم تنسَ «^(١)» .

وعن عبد الله بن جندب ، عن أبيه : أن علياً عليه السلام كان يأمرنا في كلِّ موطن لقينا معه عدوه ، فيقول : « لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فهي حجة أخرى لكم عليهم ، فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، فإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهنكوا سترًا ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة ، وإن شتمت أعراسكم ، وتناولن أمراءكم وصلحاءكم »^(٢) . وقد صارت سيرته الحريية مع أهل القبلة أحكاماً عند جميع فقهاء المسلمين وما كانت تعرف لولاه عليه السلام .

ولم يكن عليه السلام يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة ، ولا يميل إلى استعمال المكيدة والبطش كما هو شأن أعدائه .

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٣ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٥ — ٢٦ .

قال أبو عثمان الجاحظ : « وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتميز — وهو من العامة ، ويظن أنه من الخاصة — يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً ، وأصحّ فكراً ، وأجود رويةً ، وأبعد غايةً ، وأدقّ مسلكاً ، وليس الأمر كذلك ، وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه ، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله .

كان علي عليه السلام لا يستعمل في حربه إلّا ما وافق الكتاب والسنة ، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة ، كما يستعمل الكتاب والسنة ، ويستعمل جميع المكاييد ، حلالها وحرامها ، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وخاقان إذا لاقى رتبيل .

وعلي عليه السلام يقول : لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم ، ولا تتبعوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تفتحوا باباً مغلقاً ، هذه سيرته في ذي الكلاع ، وفي أبي الأعور السلمي ، وفي عمرو بن العاص ، وحبيب بن مسلمة ، وفي جميع الرؤساء ، كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسفلة .

وأصحاب الحروب ، إن قدروا على البيات يبيتوا ، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة ، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ، ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا الحصار ، ولم يدعوا أن نصبوا المخانيق والعرادات والنقب والتسريب والدبابات والكمين ، ولم يدعوا دسّ السموم ، ولا التضريب بين الناس

بالكذب ، وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات ، وتوهيم الأمور ، وإيجاش بعض من بعض ، وقتلهم بكل آلة وحيلة ، كيف وقع القتل ، وكيف دارت بهم الحال !

فمن اقتصر — حفظك الله — من التدبير على ما في الكتاب والسنة ، كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير ، وما لا يتناهى من المكاييد والكذب — حفظك الله — أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ، ولو سمي إنسان إنساناً باسمه لكان قد صدق ، وليس له اسم غيره ، ولو قال : هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير ، أو كل ما خطر على البال ، لكان كاذباً في ذلك ، وكذلك الإيمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحق والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الخطأ والصواب.

فعلي عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجلّ رضا ، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا ، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه ، ولا يرى الرضا إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنة ، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكراء والمكاييد والآراء.

فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد ، وكثرة غرائبه في الخداع ، وما اتفق له وقهياً على يده ، ولم يرو ذلك من علي عليه السلام ، ظنّوا بقصر عقولهم ، وقلة علومهم ، أن ذلك من رجحان عند معاوية ، ونقصان عند علي عليه السلام «^(١)» .

(١) شرح ابن أبي الحديد ١٠ : ٢٢٨ .

المبحث الثاني

ثورة الحسين عليه السلام

إنّ تاريخ الإسلام الجهادي قد تضمّن معركتين فاصلتين ؛ الأولى كانت على التترييل ، وكان قائدها النبي المصطفى محمد صلّى الله عليه وآله ، وقد واجه فيها أعتى الكفار والمشركين ، فضرب خراطيمهم حتّى قالوا : لا إله إلّا الله. والمعركة الفاصلة الثانية كانت على التأويل وقائدها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، وقد نازل فيها الناكثين والمارقين والقاسطين ، فبقر الباطل حتّى أخرج الحق من خاصرته ، وفقأ عين الفتنة ولم يكن ليجتريء عليها أحد غيره عليه السلام .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام : « يا علي ، تقاتل على التأويل ، كما قاتلت على التترييل » ^(١).

ووقعة الطفّ تعدّ المعركة الفاصلة الثالثة في تاريخ الإسلام الجهادي ، وكان بطلها الإمام الحسين بن عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ، وابن بضعة المصطفى صلّى الله عليه وآله الزهراء عليها السلام ، وسيّد شباب أهل الجنّة ، وثالث أئمة المسلمين بعد أبيه وأخيه الحسن ، وخامس أهل الكساء الذين اختارهم الله تعالى

(١) أمالي الطوسي : ٣٥١ / ٧٢٦ ، شرح النهج لابن أبي الحديد ٢ : ٢٧٧ ، و ٣ : ٢٠٧ و ١٤ : ٤٣ ، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ٢ : ٦٣٧ / ١٠٨٣ .

لباهلة نصارى نجران ، وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

الحسين عليه السلام يمثل الصورة المثلى للإسلام في سيرته وسلوكه وخطه الرسالي الأصيل ، وهو اختصار لشخص الرسول صلى الله عليه وآله في الخصائص ومكارم الأخلاق والسيرة والسلوك وجميع المواقف ، فقد قال جده المصطفى صلى الله عليه وآله : « حسين مني وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط » ^(١). وقال صلى الله عليه وآله : « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » ^(٢).

لقد واجه الإمام الحسين عليه السلام وضعا متردياً عاشته الأمة في عهد طغاة بني أمية ، الذين انحرفوا عن خط الإسلام الصحيح ، فأشاعوا مظاهر الفساد والإرهاب ، وعادوا إلى أحقادهم الجاهلية المقيتة ، في مواجهة الخط الرسالي السليم الذي يتبناه أهل بيت النبي المصطفى صلى الله عليه وآله ، وارتدوا في هذه المواجهة جلباب الإسلام ، ليحفظ لهم سلطاهم ويزين لهم صورتهم المزيفة.

لقد استهتر الأمويون بقيم وتعاليم الإسلام ، وأسرفوا في تعاطي المنكرات ، ومارسوا أبشع أنواع الظلم والجور مع الصالحاء والأبرياء ، فتعرضت القيم والمثل الإسلامية العليا إلى التزييف والتحريف بشكل لا

(١) التاريخ الكبير / البخاري ٨ : ٤١٥ / ٣٥٣٦ ، سنن الترمذي ٥ : ٦٥٨ / ٣٧٧٥ ، سنن ابن ماجه ١ : ١٥١ / ١٤٤ ، مسند أحمد ٤ : ١٧٢ ، مصابيح السنة ٤ : ١٩٥ / ٤٨٣٣ ، أسد الغابة ٢ : ١٩ .

(٢) مجمع البيان ٢ : ٧٦٣ ، الفصول المختارة : ٣٠٣ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٤٤
يُستساغ معه السكوت والركون. ومن هنا فإن ثورة الإمام الحسين عليه السلام
تمثل أعلى مراحل التضحية والفداء التي بذها أهل البيت عليهم السلام من أجل
الإصلاح وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي استشرى في
أوصال الأمة.

فهذا يزيد (لعنه الله) قد صار خليفة للمسلمين بعهدٍ من أبيه الوغد
معاوية، وهو يتجاهر بالكفر والفسوق وأنواع الرذيلة، وقد وصفه
المؤرخون بأنه صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود ومنادمة^(١)، وأتته
كان يُلبس كلاب الصيد أساور الذهب والجلال المنسوجة منه، ويهب
لكل كلب عبداً يخدمه^(٢).

وقال فيه عبد الله بن حنظلة وهو يخاطب الغزاة من جيش يزيد:
يا قوم، اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد بن معاوية
حتى خفنا أن تُرمى بالحجارة من السماء، إن رجلاً ينكح الأمهات
والبنات والأخوات، ويشرب الخمر، ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معي
أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاءً حسناً^(٣).

هذا هو يزيد الذي أراد من الإمام الحسين عليه السلام أن يبابعه! فكان
جواب الإمام عليه السلام لعامل يزيد على المدينة الوليد بن عتبة أن قال له بكل

(١) مروج الذهب ٣ : ٦٧.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية : ٥٥.

(٣) الطبقات الكبرى ٥ : ٦٦.

الفصل الرابع : معالم الإصلاح السياسي ١٤٥
عزم وإصرار : « أيها الأمير ، إنا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف
الملائكة ، بنا فتح الله وبنا يختم ، ويزيد رجل شارب الخمر ، وقاتل النفس
الْحَرَمَةَ ، ومعلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ،
وننظر وتنظرون أيُّنا أحقُّ بالخلافة » (١).

لقد أبت نفس الحسين عليه السلام أن تبايع ليزيد ، فخرج عليه السلام بعياله وأعرّته
وأهل بيته وأنصاره الصادقين إلى مكة ، بعد أن ألقى نظرة الوداع على قبر
جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله ، فليس ثمة أحد أحقّ بالنهضة لأجل إصلاح وتغيير
الوضع المتردّي في الأمة غير الإمام الحسين عليه السلام ، فحدّد أولاً أهداف
ثورته ، فكانت الدعوة إلى العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، ومواجهة
الجور والاستبداد ، وإحياء معالم الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، وطلب الإصلاح في الأمة ، وكلها جاءت في جملة خطاباته التي
هيأ فيها للنهضة المباركة.

فكتب عليه السلام إلى رؤوس الأخماس والأشراف بالبصرة كتاباً مع مولى له
يقال له سليمان ، جاء فيه : « قد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب ، وأنا
أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله ، فإن السنة قد أميتت ، وإن البدعة قد
أحييت ، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري ، أهدكم سبيل الرشاد ، والسلام
عليكم ورحمة الله » (٢).

(١) الفتوح لابن أعثم ٥ : ١٤ ، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١ : ١٨٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٥ : ٣٥٧ .

وروى أبو مخنف عن عقبة بن أبي العيزار : « أن الحسين عليه السلام خطب أصحابه وأصحاب الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله ، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلّوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا أحقّ من غير... » ^(١).

وقال عليه السلام : « ألا وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا ظالماً ولا مفسداً ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي ، أريد أن أمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب ، فمن قبلي يقبل الحق فالله أولى بالحق ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين » ^(٢).

وخرج الحسين عليه السلام مصمماً على تحقيق أهداف نهضته حتّى ولو أدى إلى أن يضرّج بدمه على رمال الطفّ ، وكان عليه السلام يقول : « إني لا أرى الموت إلّا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلّا برماً » ^(٣).

(١) تاريخ الطبري ٥ : ٤٠٣ ، الكامل في التاريخ ٤ : ٤٨ .

(٢) الفتوح لابن أعمش ٥ : ٢٣ ، المناقب لابن شهر آشوب ٤ : ٨٩ .

(٣) حلية الأولياء ٢ : ٣٩ ، الملهوف : ١٣٨ ، بحار الأنوار ٤٤ : ١٩٢ و ٣٨١ .

الفصل الرابع : معالم الإصلاح السياسي ١٤٧

وفي صبيحة اليوم العاشر من المحرم ، زحف القوم لقتال ابن بنت الرسول ﷺ ، فبالغ في الإعدار لهم والإنذار من غضب الجبار والنصيحة والموعظة ، فكان الجواب هو أن سدّد عمر بن سعد بسهم نحو عسكر الحسين عليه السلام وقال : اشهدوا لي عند الأمير أبي أول من رمى ! ثم رمى الناس ، فلم يبقَ من أصحاب الحسين عليه السلام أحدٌ إلّا أصابه من سهامهم ، فأذن الإمام عليه السلام لأصحابه وأهل بيته بالقتال ، فتقدّموا إلى الشهادة ، وتسابقوا إلى نيل الرضوان ، وخاضوا حرباً تطايرت فيها الأيدي وقُطعت فيها الرؤوس ، فسجّلوا ملحمة البطولة والفداء بدمائهم الزكية .

ومضى عليه السلام من أجل الإصلاح مضرّجاً بدم الشهادة ، شاهداً على أهل زمانه ، شهيداً من أجل رسالة الإسلام ومبادئه الحقّة .

قال خالد بن معدان ^(١) في رثائه عليه السلام :

جاءوا برأسك يا ابن بنت محمدٍ
مُتَرملاً بدمائِه تَرميلاً
وكأثما بك يا ابن بنت محمدٍ
فَقَتَلُوا جِهَاراً عامدينَ رسولاً
فَقَتَلُواكَ عَطَشَاناً ولم يترقّبوا
في قتلِكَ التّزيّلَ والتّأويلاً
ويُكبّرونَ بأن قُتِلت وإثماً
فَقَتَلُوا بك التّكبيرَ والتّهليلاً ^(٢)

(١) من فضلاء التابعين المختصين بأمير المؤمنين عليه السلام ومن أهل الصلاح والدين والبأس والنجدة ، توفي في حدود سنة ١٠٣ هـ . أعيان الشيعة ٦ : ٢٩٦ .

(٢) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ١١٧ ، الملهوف : ٢١١ ، بحار الأنوار ٤٥ : ١٢٩ و ٢٤٤ ، أعيان الشيعة ٦ : ٢٩٦ ، أدب الطف ١ : ٢٨٨ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٤٨
وكان من نتائج النهضة الحسينية المباركة أن أرسيت دعائم الإسلام ،
ودافعت عن مبادئه الأصيلة ، وكشفت عن قناع الزيف الأموي ، ومساراته
المنحرفة عن جادة الإسلام وكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وآله ، وفضحت الحكام
الأمويين الذين جعلوا من الإسلام شعاعاً يمرّون به أهواءهم المريضة ،
وستاراً يستحذون به على أموال المسلمين وحقوقهم ، وأحييت الضمائر
التي خنقها الإرهاب ، فكانت فاتحة الثورات التي سحبت الشرعية من
دولة بني أمية ، وسلطت معاول الهدم على أركانها حتى قوّضت حكمهم
إلى الأبد.

لقد كانت معركة الطف في حساب الزمن ساعات من نهار ، لكنها في
حساب المبادئ الحقّة والمثل العليا ، وما أفرزته من عناصر الوعي
والتصحيح ، اختزلت التاريخ بكلّ أبعاده ، وستبقى منارا لكلّ من دفع
حياته ثمنا لنصرة الحق ، ومبدأً لمقارعة الزيف والظلم والطغيان والفساد ،
ومظهراً للفتوة ونكران الذات ، ورايةً تحفّق على طول الزمن.

المبحث الثالث

مقاطعة سلطات الجور

إنّ السلطات المعاصرة لأهل البيت عليهم السلام قد أمعنت كثيراً في إقصائهم
عن قيادة الأمة وعن ممارسة دورهم الرسالي الذي جعله الله تعالى حقّاً

الفصل الرابع : معالم الاصلاح السياسي ١٤٩

لهم إلى أن تقوم الساعة ، ومارست ضدّهم شتّى أساليب الظلم والجور والقتل ، ومن هنا اتخذ أهل البيت عليهم السلام بعد الإمام الحسين عليه السلام موقفاً واضحاً من السلطات الحاكمة المعاصرة لهم ، يتلخص في الدعوة إلى مقاطعتها وتحريم التعاون معها ؛ ذلك لأنّها تعتبر كياناً بعيداً عن المنهج الإسلامي الأصيل في ممارسة الإدارة والحكم وعن مبادئ الإسلام السامية وعقيدته السمحة.

وهذا الموقف جاء في مقابل فتاوى فقهاء البلاط الذين يحاولون إضفاء الشرعية الزائفة على ممارسات حكام الجور ، وهي بمثابة دعوة صريحة للأمة في مواجهة الظلم ومقاومة نفوذه بما يتفق وظروف تلك المرحلة وبما ينسجم مع مسؤوليتهم الرسالية في تقديم النصح للأمة وتسديدها عند التباس معالم الهدى والصلاح ، وعلى الأمة أن تختار لنفسها المصير الذي تشاء ؛ فإمّا أن تمارس المقاطعة للسلطان الجائر فتنتصر لرسالتها وحقّها في الحياة الحرّة الكريمة ، وإمّا أن ترضخ وتستسلم فتعيش بعيداً عن رسالتها تحت ظلّ القمع والظلم.

عن سليمان الجعفري قال : « قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام : ما تقول في أعمال السلطان ؟ فقال : يا سليمان ، الدخول في أعمالهم والعون لهم والسعي في حوائجهم عدل الكفر ، والنظر إليهم على العمد من الكبائر التي يستحقّ بها النار » ^(١).

(١) تفسير العياشي ١ : ٢٣٨ / ١١٠.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٥٠

وعن أبي بصير ، قال : « سألت أبا جعفر عليه السلام عن أعمالهم فقال لي : يا أبا محمد ، لا ولا مدّة قلم ، إن أحدكم لا يصيب من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينه مثله » ^(١).

وعن زياد بن أبي سلمة قال : « دخلت على أبي الحسن موسى عليه السلام فقال لي : يا زياد ، إنك لتعمل عمل السلطان ؟ قال : قلت : أجل ، قال لي : ولم ؟ قلت : أنا رجل لي مروءة وعليّ عيال وليس وراء ظهري شيء ، فقال لي : يا زياد ، لئن أسقط من حالق فأتقطع قطعة قطعة أحبّ إليّ من أن أتولّى لأحدٍ منهم عمالاً أو أطأ بساط رجلٍ منهم... » ^(٢).

وعن حميد ، قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إني وليت عمالاً فهل لي من ذلك مخرج ؟ فقال : ما أكثر من طلب المخرج من ذلك فعسر عليه ، قلت : فما ترى ؟ قال : أرى أن تتقي الله عزّوجلّ ولا تعد » ^(٣).

وفي مقابل ذلك أجازوا لبعض شيعتهم ممارسة العمل في أجهزة الدولة ، لمصالح وأسباب خاصة ، منها إرساء قواعد الحقّ والعدل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمساعدة في دفع الظلم والجور عن كاهل الأبرياء من المؤمنين وقضاء حوائجهم ، وهو الاستفادة من جواب الإمام أبي الحسن موسى عليه السلام لعلي بن يقطين حين طلب الإذن في ترك منصبه ، قال عليه السلام : « لا تفعل ، فإن لنا بك أنساً ، وإخوانك بك عزاً ، وعسى أن يجبر بك

(١) الكافي ٥ : ١٠٦ / ٥ ، التهذيب ٦ : ٣٣١ / ٩١٨ .

(٢) الكافي ٥ : ١٠٩ / ١ ، التهذيب ٦ : ٣٣٣ / ٩٢٤ .

(٣) الكافي ٥ : ١٠٩ / ١٥ ، التهذيب ٦ : ٣٣٢ / ٩٢٢ .

كسراً ، ويكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه. يا علي ، كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم ، اضمن لي واحدة وأضمن لك ثلاثة ، اضمن لي أن لا تلقى أحداً من أوليائنا إلّا قضيت حاجته وأكرمته ، وأضمن لك أن لا يظلك سقف سجن أبداً ، ولا ينالك حد سيف أبداً ، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً. يا علي ، من سرّ مؤمناً فبالله بدأ ، وبالنبي صلى الله عليه وآله تنى ، وبنا ثلث «^(١).

وكان من بين الذين زاولوا عمل السلطان علي بن يقطين الذي تقلّد ديوان الأزمة أيام المهدي ، ومنصب الوزارة أيام هارون ، وأقره الإمام الكاظم عليه السلام ، وعبد الله بن النجاشي الذي تقلّد ولاية الأهواز في أيام المنصور ، فاستشار الإمام الصادق عليه السلام برسالة بعثها إليه ، فوجّه الإمام عليه السلام إليه جوابها برسالة اشترط عليه فيها مراعاة حقوق الإخوان^(٢) ، وعبد الله ابن سنان الكوفي ، وكان خازناً للمنصور والمهدي والهادي والرشيدي ، وهو ثقة جليل لا يطعن عليه في شيء^(٣).

* * *

(١) كتاب قضاء حقوق المؤمنين / الصوري — منشور في مجلة تراثنا — العدد ٣ الصفحة ١٨٧ — الحديث ٢٥.

(٢) راجع مجلة علوم الحديث : ٢٢٩ ، العدد (١١) — السنة (٦) — محرم (١٤٢٣ هـ).

(٣) رجال النجاشي : ٢١٤ ، خلاصة العلامة : ١٩٢.

الفصل الخامس

معالم التصحيح اللغوي والتاريخي

المبحث الأول

معالم التصحيح اللغوي

لأهل البيت عليهم السلام إسهامات مهمة في التصحيح اللغوي ، نذكر منها :

١ - وضع قواعد العربية :

بعد توسّع الفتوح الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من الأقوام المجاورة ، وشيوع اللحن على الألسن ، ازدادت الحاجة إلى وضع ضابطة تعصم اللسان من اللحن ، من هنا لقّن أمير المؤمنين علي عليه السلام أبا الأسود الدؤلي قواعد النحو العربي ، فنقّط المصحف نقاط الإعراب ، ليقوم ما فسد من اللسان ويحافظ على لغة القرآن ، فهو عليه السلام أوّل من سنّ العربية ووضع قواعد نحوها ، وألقى أصوله وجوامعها إلى أبي الأسود الدؤلي ، باتّفاق أغلب علماء اللغة ومؤرّخيها ^(١).

(١) راجع : معجم الأدباء / ياقوت ١٢ : ٣٤ و ١٤ : ٤٢ ، المزهر / السيوطي ٢ : ٣٩٧ ، الخصائص / ابن جنّي ٢ : ٨ ، خزانة الأدب / البغدادي ١ : ٢٨١ ، شذرات الذهب / ابن العماد ١ : ٧٦ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ ، صبح الأعشى / القلقشندي ١ : ٣٥٠ و ٤٢٠ و ٣ : ١٥١ ، فهرست ابن النديم : ٥٩ .

الفصل الخامس : معالم التصحيح اللغوي والتاريخي ١٥٣

قال ابن أبي الحديد مبيناً أثر أمير المؤمنين عليه السلام في نشأة بعض العلوم : « ومن العلوم : علم النحو والعربية ، وقد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه وأنشأه ، وأملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه وأصوله ، من جملته : الكلام كله ثلاثة أشياء : اسم وفعل وحرف . ومن جملتها : تقسيم الكلمة إلى معرفة ونكرة ، وتقسيم وجوه الإعراب إلى الرفع والنصب والجرّ والجزم . وهذا يكاد يلحق بالمعجزات ، لأنّ القوة البشرية لا تفي بهذا الحصر ، ولا تنهض بهذا الاستنباط » ^(١).

وقد سئل أبو الأسود : « من أين لك هذا العلم ؟ فقال : لقّنت حدوده من علي بن أبي طالب عليه السلام » ^(٢).

وأخذ الدارسون عن أبي الأسود أصول قواعد العربية ، فكانت الأساس الأوّل الذي أُقيم عليه صرح الدراسات اللغوية والأدبية ، حيث دوّنت أصول اللغة والنحو والصرف بعد استقراء كلام العرب ودراسة مختلف أساليبه.

٢ — التأكيد على الإعراب :

عن جميل بن دراج قال : « قال أبو عبد الله عليه السلام : أعربوا حديثنا ، فإننا قوم فصحاء » ^(٣).

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ .

(٢) وقّيات الأعيان ٢ : ٥٣٧ ، مرآة الجنان / اليافعي ١ : ١٦٢ ، الإصابة ٢ : ٢٤٢ .

(٣) الكافي ١ : ٥٢ / ١٣ .

٣ — الممارسة العملية للتصحيح :

عن عبد الله بن سنان : « أنه وصف بعض الناس أمام أبي عبد الله عليه السلام بقوله : حسن السميت . فقال عليه السلام مصححاً : لا تقل حسن السميت ، فإن السميت سمت الطريق ، ولكن قل حسن السيماء ، فإن الله عزّ وجلّ يقول : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ ^(١) .

وروى الشيخ الكليني بالإسناد عن يونس بن يعقوب ، قال : « أنشد الكميت أبا عبد الله عليه السلام شعرا ، فقال :

أخْلَصَ اللهُ لِي هَوَايَ فَمَا أَعُزُّ رَقُّ نَزْعَا وَلَا تَطْيِيشُ سِهَامِي
فقال أبو عبد الله عليه السلام : لا تقل هكذا (فما أَعُزُّ نَزْعَا) ولكن قل (فقد أَعُزُّ نَزْعَا وَلَا تَطْيِيشُ سِهَامِي) ^(٢) .

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر ، قال : « قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام : إنّ الحسن بن محبوب الزرّاد أتانا عنك برسالة ، قال : صدق ، لا تقل الزرّاد ، بل قل السرّاد ؛ إنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ ^(٣) .

(١) الكافي ٢ : ١١ / ٢ ، والآية من سورة الفتح : ٤٨ / ٢٩ .

(٢) الكافي ٨ : ٢١٥ / ٢٦٢ ، والبيت من أوّل قصيدة في الهاشميّات : ٢٣ ، وتقع في (١٠٣) أبيات ، ومطلعها :

مَنْ لِقَلْبٍ مُتَمِّمٍ مُسْتَهَامٍ غَيْرَ مَا صَبُوءٍ وَلَا أَحْلَامٍ

وورد البيت في شرح الهاشميّات : ٣٧ لأبي ريش القيسي ، ورجال الكشي : ٢٠٦ /

٣٦٢ ، والمناقب لابن شهر آشوب : ٤ : ٢٠٧ ، وإعلام الوري / الطبرسي ١ : ٥١٠ .

(٣) رجال الكشي : ٥٨٥ / ١٠٩٥ والآية من سورة سبأ : ٣٤ / ١١ .

المبحث الثاني

معالم التصحيح التاريخي

لأهل البيت عليهم السلام إسهامات كثيرة في مجال التصحيح التاريخي ^(١) سيما في النقاط التي يضيفي عليها المؤرخون شيئاً من الضبابية ، أو يتعمدون إسقاطها أو تحريفها ، لأسباب فرضتها هيمنة السلطة الحاكمة على نتاج المؤرخ وسلبها لإرادته ، نذكر هنا على سبيل المثال :

عن إسحاق بن جعفر ، عن أبيه عليه السلام قال : « قيل له : إنهم يزعمون أن أبا طالب كان كافراً ؟ فقال : كذبوا كيف يكون كافراً وهو يقول : ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أول الكتب وفي حديث آخر : كيف يكون أبو طالب كافراً وهو يقول :

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعبأ بقل الأباطل وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل » ^(٢) وعن صفوان الجمال قال : « كنت أنا وعامر وعبد الله بن جذاعة الأزدي عند أبي عبد الله عليه السلام قال : فقال له عامر : جعلت فداك ، إن الناس يزعمون أن أمير المؤمنين عليه السلام دُفن بالرحبة ؟ قال : لا . قال : فأين دفن ؟ قال :

(١) راجع : أبواب التاريخ من أصول الكافي.

(٢) الكافي ١ : ٤٤٩ / ٢٩ .

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٥٦
إنه لما مات احتمله الحسن عليه السلام فأتى به ظهر الكوفة قريباً من النجف يسرة عن
الغري ، بمنة عن الحيرة ، فدفنه بين ذكوات بيض ، قال : فلما كان بعد ذهب
إلى الموضع ، فتوهمت موضعاً منه ، ثم أتته فأخبرته فقال لي : أصبت
رحمك الله — ثلاث مرات — « ^(١).

* * *

(١) الكافي ١ : ٤٥٦ / ٥ .

الفصل السادس

تصحيح مفاهيم في الطبّ والغذاء

لم يقتصر أهل البيت عليهم السلام على طب الأرواح والقلوب ، بل اهتموا بطب الأقسام ، فورد عنهم عليهم السلام المزيد من الإرشادات والنصائح الطيبة والآداب الصحية ، ومواصفات لكثير من الأغذية والأدوية وفوائدها ، وعلاجات للأمراض السائدة في زمانهم ضمن معطيات الأدوية المستعملة آنذاك ، وبيّنوا شيئاً وافياً عن الطبائع مما له ربط بصحة الإنسان ومزاجه ، ووظائف الأعضاء وحكمة وضعها في مواضعها.

وقد أثر عن الإمام الرضا عليه السلام رسالة في الطب اسمها (الرسالة الذهبية) كتبها بطلب من المأمون ، وسميت كذلك لأن المأمون أمر أن تكتب بماء الذهب، وهي لاتزال إلى اليوم من أرقى النصوص في موضوعها، وأشهرها بين العلماء، وقد تسالموا على نسبتها للإمام عليه السلام في شتى العصور.

وهي تشتمل على ما جرّبه وسمعه عليه السلام من الأطعمة والأشربة ، واستعمال الأدوية ، ومضارّ الأغذية ومنافعها ، والفصد والحجامة ، والسواك والحمام والنورة وغير ذلك مما يدبر استقامة أمر الجسد ، وما فيه صلاحه وقوامه وتدييره ^(١).

(١) راجع : متن الرسالة في بحار الأنوار ٦٢ : ٣٠٩ . وهي متداولة ، طبعت في النجف سنة ١٣٨٠ هـ ، وفي قم سنة ١٤٠٢ هـ ، وفي بيروت بدار المناهل سنة ١٤١٢ هـ .

١ - دراسات في طب الأئمة عليهم السلام :

أفرد بعض الأصحاب موضوع طب الأئمة عليهم السلام بتأليف خاص ، فالذين ذكروهم النجاشي وحده : إسماعيل بن شعيب العريشي ، الحسين بن بسطام ، وأخوه عبد الله بن بسطام ^(١) ، أحمد بن محمد بن خالد البرقي ، أحمد بن محمد بن سيار ، أحمد بن محمد بن دول القمي ، عبد الله بن جعفر الحميري ، عبد العزيز بن يحيى الجلودي ، علي بن الحسن بن فضال ، علي بن الحسين بن بابويه القمي ، محمد بن أحمد بن محمد بن رجاء البجلي ، محمد بن أحمد بن يحيى بن عمران الأشعري ، محمد بن عبيد الله البرقي ، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ، موسى بن الحسن بن عامر الأشعري.

ومن الدراسات الحديثة كتاب (طب الإمام الكاظم عليه السلام) ^(٢) جمع فيه الأستاذ شاكر شيع كل ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام من حديث يتعلق بعلم الطب ، وجعل في هامش كتابه دراسة وافية ومقارنة بين طبه عليه السلام والطب الإسلامي والعربي واليوناني.

٢ - تصحيح مفاهيم في الطب :

هناك بعض المفاهيم في الأغذية والأدوية شائعة بين الناس والمتطبين ، وهي في حقيقتها عادات وموروثات مغلوطة ، استطاع الأئمة عليهم السلام وضعها

(١) ألفا كتاباً كثير الفوائد والمنافع ، عنوانه طب الأئمة عليهم السلام ، والمؤلفان من أعلام القرن الرابع الهجري ، مطبوع من منشورات المكتبة الحيدرية ، النجف الأشرف ، ١٣٨٥ هـ.

(٢) نشر : المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام - مشهد.

في نصابها الصحيح ، منها ما رواه إسحاق بن عمار قال : « قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إهم يقولون : الزيتون يهيج الرياح ؟ فقال : إن الزيتون يطرد الرياح » ^(١).

وعن عبد الرحمن بن كثير قال : كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدخل عليه مهزم ، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام : ادع لنا الجارية تجتنا بدهن وكحل. فدعوت بها فجاءت بقارورة بنفسج ، وكان يوماً شديداً البرد ، فصبّ مهزم في راحته منها ، ثم قال : جعلت فداك ، هذا بنفسج ، وهذا البرد الشديد ! فقال : وما باله يا مهزم ؟ فقال : إن متطيبينا بالكوفة يزعمون أن البنفسج بارد ؟ فقال : هو بارد في الصيف ، لين حارّ في الشتاء » ^(٢).

وعن عمار الساباطي قال : « قال أبو عبد الله عليه السلام : ما يقول من قبلكم في الحمامة ؟ قلت : يزعمون أنها على الريق أفضل منها على الطعام. قال : لا ، هي على الطعام أدّر للعروق وأقوى للبدن » ^(٣).

عن موفق مولى أبي الحسن عليه السلام قال : « كان مولاي أبو الحسن عليه السلام إذا أمر بشراء البقل يأمر بالإكثار منه ، ومن الجرجير فيشتري له ، وكان يقول عليه السلام : ما أحقق بعض الناس يقولون : إنه ينبت في وادٍ في جهنم ! والله عزّ وجلّ يقول : ﴿ وَقُوذُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ ^(٤) فكيف تنبت البقل !؟ » ^(٥).

(١) الكافي ٦ : ٣٣١ / ٣.

(٢) الكافي ٦ : ٥٢١ / ٦.

(٣) الكافي ٨ : ٢٧٣ / ٤٠٧.

(٤) سورة البقرة : ٢ / ٢٤.

معالم الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ١٦٠
وعن الحسين بن خالد ، قال : « قلت لأبي الحسن عليه السلام إن الناس يقولون : من لم يأكل اللحم ثلاثة أيام ساء خلقه ؟ فقال : كذبوا ، ولكن من لا يأكل اللحم أربعين يوماً تغيّر خلقه وبدنه ؛ وذلك لانتقال النطفة في مقدار أربعين يوماً » ^(١).

وعن سعد بن سعد قال : « قلت لأبي الحسن عليه السلام : إن أهل بيتي لا يأكلون لحم الضأن. قال : فقال : ولم ؟ قال : قلت : إنهم يقولون : إنه يهيج بهم المرة السوداء والصداع والأوجاع. فقال لي : يا سعد. فقلت : لبيك. قال : لو علم الله عزّوجلّ شيئاً أكرم من الضأن لعدى به إسماعيل عليه السلام » ^(٢).

عن يعقوب بن يزيد ، عن بعض أصحابنا ، قال : « دخلت على أبي الحسن علي بن محمد العسكري عليه السلام يوم الأربعاء وهو يحتجم ، فقلت له : إن أهل الحرمين يروون عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : من احتجم يوم الأربعاء فأصابه بياض فلا يلومن إلّا نفسه. فقال عليه السلام : كذبوا إنما يصيب ذلك من حملته أمه في طمث » ^(٣).

٣ — إرشادات مهمة :

وردت عن آل البيت عليهم السلام بعض الإرشادات الطيبة التي لا تزال إلى اليوم تكتسب أهمية فائقة في علم الطب ، سيما في مجال مفهوم الحمية من

(١) الكافي ٦ : ٣٦٨ / ٤.

(٢) بحار الأنوار ٦٦ : ٦٧ / ٤٦.

(٣) الكافي ٦ : ٣١٠ / ٢.

(٤) الخصال : ٣٨٦ / ٧٠.

الفصل السادس : تصحيح مفاهيم في الطب والغذاء ١٦١

الطعام ، وعدم الإفراط في الدواء.

قال أبو الحسن الأول عليه السلام : « ادفعوا معالجة الأطباء ما اندفع الساء عنكم ، فإنه بمترلة البناء قليله يجبر إلى كثيره » ^(١).

وعن عثمان الأحول ، قال : « سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : ليس من دواء إلّا وهو يهيج داء ، وليس شيء في البدن أنفع من إمساك اليد إلّا عما يحتاج إليه » ^(٢).

وعن عمرو بن إبراهيم ، قال : « سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول : لو أن الناس قصدوا في المطعم ، لاستقامت أبدانهم » ^(٣).

وقال أبو الحسن عليه السلام : « الحمية رأس كل دواء ، والمعدة بيت الأدواء ، وعود بدنك ما تعود » ^(٤).

وعن إسماعيل الخراساني ، عن الرضا عليه السلام قال : « ليس الحمية من الشيء تركه ، إنما الحمية من الشيء الإقلال منه » ^(٥).

انتهى الكتاب بفضل الله ومنّه

(١) علل الشرائع : ٤٦٥ / ١٧.

(٢) الكافي ٨ : ٢٧٣ / ٤٠٩.

(٣) المحاسن : ٤٣٩ / ٢٩٦.

(٤) فقه الإمام الرضا عليه السلام : ٣٤٠.

(٥) عيون أخبار الرضا ١ : ٢٧٦ / ٧٢.

المحتويات

٥	مقدمة المركز
٧	مقدمة المؤلف
١١	الفصل الأول : معالم التصحيح في التفسير والحديث
١١	المبحث الأول - القرآن والتفسير
١٤	١ - في تفسير القرآن الكريم
١٦	٢ - التصدي للمزاعم الباطلة حول القرآن الكريم
١٧	٣ - تصحيح مزاعم المفسرين
١٩	٤ - مسألة خلق القرآن
٢٠	٥ - منهجهم في تفسير آيات الصفات
٢٣	٦ - في تفسير آيات الأحكام
٢٥	٧ - في أسباب النزول
٢٧	المبحث الثاني - الحديث ، في رواية الحديث ودرايته
٣٠	موارد من تصحيح الحديث
٣٠	١ - بيان سبب صدور الحديث
٣١	٢ - بيان مواطن الحذف والتحريف
٣٢	٣ - بيان مواطن الكذب والوضع
٣٤	قاعدة تشخيص الكذب والوضع
٣٦	تطبيقات لهذه القاعدة

١٦٤ معالم الإصلاح عند أهل البيت <small>عليهم السلام</small>
٣٨ ٤ — تكذيب خبر أبي بكر في الاستحواذ على ميراث النبي <small>صلى الله عليه وآله</small>
٤٠ ٥ — بيان ما كان معلقاً بشرط
٤٠ ٦ — بيان الخاصّ والعامّ والمفصلّ والمجمل
٤١ ٧ — بيان مفهوم الحديث وشرح غريبه
٤٥ تدوين الحديث
٤٨ تصحيح كتب الحديث وأصوله
٥٣ الفصل الثاني : معالم التصحيح في العقائد
٥٤ الأول : مباحثة أصحابهم في المسائل الكلامية وتصحيحها
٥٤ الثاني : استعراض عقائد أصحابهم وتصحيحها
٥٦ موارد من التصحيح العقائدي
٥٦ ١ — صفات الذات
٥٨ كيف وصف أهل البيت <small>عليهم السلام</small> الذات الإلهية
٥٩ ٢ — تنزيه الذات عن مقولات المشبهة والمعطلة
٦٢ ٣ — إبطال الرؤية
٦٤ ٤ — علمه تعالى
٦٥ البداء
٦٩ ٥ — الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين
٧١ ٦ — الهداية والضلالة والسعادة والشقاوة
٧٢ ٧ — تنزيه الأنبياء عن المعاصي
٧٦ ٨ — التصدّي لحركة الغلو والنصب
٧٩ ٩ — التصدّي لأهل البدع والشبهات

١٦٥	المحتويات
٨٣	١٠ — تصحيح مفاهيم في الإمامة
٨٤	الأول : بيان حقهم ﷺ في الخلافة
٨٥	الثاني : بيان استلاب حقهم ﷺ
٨٨	الثالث : الردّ على مدّعيات أصحاب الشورى
٩٠	موارد من التصحيح
٩٧	١١ — الإسلام والإيمان
٩٨	١٢ — تصحيح عقائد الفرق والردّ عليها
١٠١	١٣ — خلق الجنة والنار وخلودهما
١٠٢	١٤ — هداية الخلق
١٠٥	الفصل الثالث : معالم التصحيح في السنن والأحكام
١٠٦	١ — إبطال القياس والرأي
١٠٧	مناظرة الفقهاء وهدايتهم
١١٠	٢ — تصحيح ما أعضل على الخلفاء المعاصرين لهم ﷺ
١١٣	٣ — تصحيح ما أخطأ فيه الفقهاء أو اختلفوا
١١٥	٤ — تصحيح أحكام اختلف فيها أصحابهم
١١٦	٥ — تصحيح الأدعية المأثورة
١١٨	٦ — تصحيح بعض الممارسات والمقولات الخاطئة
١٢١	الفصل الرابع : معالم الإصلاح السياسي
١٢١	المبحث الأول — حكومة الإمام علي ﷺ
١٢١	١ — الإصلاح السياسي
١٢٤	٢ — الإصلاح الديني

معالم الإصلاح عند أهل البيت <small>عليهم السلام</small>	١٦٦
أ — العمل بكتاب الله وإحياء السنة	١٢٤
ب — الوقوف بوجه البدع والمحدثات	١٢٦
٣ — الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي	١٢٩
أولاً — الغاء مظاهر الاستتار	١٢٩
ثانياً — المساواة	١٣٣
٤ — في مجال الحرب	١٣٧
المبحث الثاني — ثورة الحسين <small>عليه السلام</small>	١٤٢
المبحث الثالث — مقاطعة سلطات الجور	١٤٨
الفصل الخامس : معالم التصحيح اللغوي والتاريخي	١٥٢
المبحث الأول — معالم التصحيح اللغوي	١٥٢
١ — وضع قواعد العربية	١٥٢
٢ — التأكيد على الإعراب	١٥٣
٣ — الممارسة العملية للتصحيح	١٥٤
المبحث الثاني — معالم التصحيح التاريخي	١٥٥
الفصل السادس : تصحيح مفاهيم في الطبّ والغذاء	١٥٧
١ — دراسات في طب الائمة <small>عليهم السلام</small>	١٥٨
٢ — تصحيح مفاهيم في الطب	١٥٨
٣ — ارشادات مهمة	١٦٠
المحتويات	١٦٣